
بيت للعابرين
سعيد الكفراوى
www.kotobarabia.com

بيت للعابرين

سعيد الكفراوي

فهرس

سيدة على الدَرَج

عندما كان نصفه خارج باب شقته قال: "لعل النهار يكون اليوم أفضل"، وبحذر شديد أغلق الباب؛ حتى لا يُحدث صوتا.

على الدرج ضوء لمصابيح سقفية تنطفئ ذاتيا، ونباتات ظل ليست مزهرة، وأسماء نُحاسية على الأبواب لمالكين، إلا بابه هو فعليه كتابة لكلمات قديمة تحت نقش من نحاس لامرأة تقف عارية عند مصب الماء.

يحاذر في نزوله الدرج حتى لا تشعر به الأرملة جارته فتوقفه ككل يوم وتكلمه عن أحوالها.

فكر، إنه على مدى عامين وهو يرقبها تقف في فتحة الباب ناعسة العينين تحدثه عن زوجها الراحل "لتتقدس روحه مع القديسين"، وعن وحدتها في هذه الشقة الواسعة حيث تطاردها الذكريات، وبكاء زوجها الميت يتردد في فراغ الشقة. قال: "حكايات لن تنتهي" وبدأ يتوجس من معرفة زوجته لما هو فيه.

هبط الدرج على صوت موسيقى تأتي من إحدى الشقق (كأنه "موتسارت" الطفل الإلهي يدور بالمعنى المكتمل عن النور، وعن مبيت الروح في باحة منزل الريح).

ما إن هبطت قدمه على بسطة السلم العريضة، أمام باب شقتها حتى انفتح وأطلت منه برأسها مبتسمة. كانت تقف في فتحة الباب، وبالكاد سمع صوتها الشاحب يلقي عليه تحية الصباح أخذ بالمفاجأة ورد بعجلة:

- صباح النور.

تقف بشعرها الطويل الأسود كليل، وبشرتها البيضاء الناصعة، تلف جسدها في روب أسود من الدانتلا، وتحته قميص من نفس اللون يكبح ثدييها النافرين بحيوية منتصف العمر.

- أهلا مدام.

- أهلا بك.

تأكد لديه عندما لمح نظرة عينيها المجهدة أنها أمضت ليلتها في مطاردة ماضيها، وأنها تعيش -بقدر هائل من الجنون- ذكرياتٍ زوجها الراحل.

أتى صوت البحر من بعيد، وهبت نسائم أكتوبر البادرة من نافذة السلم.

كان يتأمل شقتها المنورة، الصور على الجدران، والأثاث على الأرض بشكله الرصين. كل مرة يقف فيها يرى زوجها يطل عليه من فوق الجدار من خلال صورة ملونة، بجانبه صورة لأحد القديسين يعتمر مسوحًا أسود، وبيده الصليب من فضة، تستقر فوق الصورتين سنبلات من قمح في لون الذهب.

- عن إذنك مدام.
- لم العجلة؟

ثم سكتت لحظة بعدها أكملت:

- لقد نسيت أن أخبرك أمس.
- خيرا.

ورأى القطة تتجه ناحيته، خارجة من تحت الطاولة، وتموء بصوت غير شبعان، تتمسح برجله التي نقلها بعيدا.

تأملته لحظة، نقلت فيها يدها من خارج الباب الأيمن ودفعت بثدييها في حركة ظاهرة، وأخذت تستمع لصوت الموسيقى.

قال:

- لقد سافرنا معا سنوات طويلة.
- أعرف، أعرف مدام.
- لقد اعتاد أن يأخذني كل عام إلى بلد.
- .....
- لقد شاهدت معه الدنيا.

تأكد لديه أنه كثيرا ما سمع تلك الحكايات، ما يضنيه أنه لا يعرف ما الذي تريده؟ وبدا له الأمر عبثيا لدرجة لا تصدق، وخاف أن ينتهي كل هذا إلى الجنون.

قال لها:

- الله يرحمه مدام، كان من الرجال الطيبين.
- وتهيأ للانصراف، لكن صوتها جاءه:
- كما تعرف فأنا برغم كل الظروف ما أزال عندي الذكريات.

- طبعا.
- هي ليست ككل الذكريات بالفعل.
- ضروري.
- هي ذكريات مع رجل ميت. رجل لم يعد موجودا.

صمتتْ ونكستْ رأسها فرأى مفرق شعرها، وتأكد من أن نهاره سوف يطول، وخاف من صعود أحد الجيران، أو أن تفتح زوجته باب الشقة، حاول استدعاء صوت البحر لعله يأخذه إلى بعيد.

سمعها تقول:

- على فكرة إن رجلا حي أفضل من كل الرجال الميتين.

أخذ، وانقبض قلبه، وشعر بلفحة الهواء الباردة كأنها تجفف عرقه وتساءل:

- أفندم؟
- ردتْ عليه:
- الوحدة صعبة، وأنا امرأة عندي بنتان في عمر الشباب، وأنت كما تعرف.. نحن لا نتزوج بعد أن

يموت أزواجنا، ما يضنيني كيف سأعبر ما تبقى لي من سنين؟

شعر اليوم بأنها تتسلل إليه، تكشف غطاءها عن أمنية، وأنها تسير بمحاذاة سور مظلل في اتجاهه. قال في نفسه "كل الأمور غير متشابهة" وشعر للحظة بافتقاده للأمان، وبدا الأمر كأنه يخصه، وانبثق بداخله ضوء من حنان.

- لكن يا مدام ...
- لكن ماذا؟.. هل تريدني أن أدور في الشوارع.. أنا سيدة محترمة وأنت سيد العارفين.

علا صخب الماء، ونفذ منه إلى حبة القلب.

كأنما الريح تشتهي لحس الصخور.

وكأنما السمك يخاف انقضاض الطائر الصياد.

- عامان وأنا أقاوم.. الأمر.. أقصد.. أنت جار طيب تُقَدّر مثل ما أنا فيه.. يعني.. أنت رجل.. و.. أقصد.. يعني.

ارتجف، وتنهد بغير ارتياح، غير أن الرجفة التي داهمته انزاحت، والشكوك التي أصابت عقله تبددت عندما رآها

تبتسم، ورأى ذلك الحنان العميق يشع من عينيها، وأدرك كم هي امرأة وحيدة، وأنها تقاوم نفسها بعزة.

رجعت بظهرها داخل الشقة، وكان عليه أن يستعيد نفسه ليخطو خطوته الأولى إلى الداخل (حيث صورة الزوج، والقديس، وسنبلات القمح الذهبية) تاركا يده تسحبه منها، ناظرا من نافذة الشقة المفتوحة على البحر الذي اشتد الآن موجه.

صباح غير أليف
صباح غير عادل

صباح.

الضواحي:

من ناحية أن الأمر كله على قدْر من الغرابة فهو على قدر من الغرابة.

ومن ناحية أخرى أنه يقتحمُك كل يوم، ويثير دهشتك فلا تعرف إن كنت سوف تبكي، أم أن الأمر سوف يمضي كغيره، وقد ترك فيك هذا الحزن الذي لا يمكن لك أن تغادره.

تظل مشدودًا بعينيك ناحية الشرفة المقابلة كل مساء.

"في الصباح تدخل في بنطالك وقميصك، بعد أن تتأمل صورتك في مرآة بيتك، وتسحب كتابك وتضعه تحت إبطك وتصعد إلى المقطم القريب لتطل منه على الهاوية".

ما الذي يدفعك للصعود للمقطم كل يوم؟

تستدعي إليك المدينة فتحممها، وتجففها لعلها تستعيد قدرا من الجمال كانت عليه.

شارعك مأسور بصفي "البونسيانا" المزهرة على الجانبين، ومدرسة اللغات على الناصية، ومعهد التاريخ

الطبيعي، ومحل بيع الزهور ذو الفترينة التي يسح منها الماء على زجاجها كالدموع.

تنحرف تاركا مكانك المقيم وتوغل في الشوارع المقفرة مارا بتلك السينما الخالية من الرواد، والفندق العامر باليهود، فتقف لحظة تتأمل سحناتهم وهم يهبطون من المركبات بثيابهم الكالحة، على صدورهم النجمة المسدسة، ولا ترد عليهم السلام.

تكتشف أنك تأخرت على موعدك، فيسري في كيانك قلق فتسرع من خطاك إلى البيت.

"الأمر بدأ يشغلك"

وتسحب من صالة الشقة كرسي الخيزران وتثبته في الشرفة وتجلس. تكون الشمس على وشك المغادرة. تتأمل على جدار شقتك مستنسخات من "فان جوخ" و "جوجان"، والخنجر اليماني في جرابه على الحائط، خلف صف الكتب ذات الأغلفة الملونة. وتهمس: "إنه لأمر بدأ يثير مخاوفك إلى حد ما".

تسرع كل يوم للقائهما.

كانتا تدعيان "نورا" و "سلمى"، في أحد الأيام التي لم تكن بعيدة، بلغتا معا من العمر العشرين. وتوأمان تقطنان الشقة المقابلة، ذات الواجهة البحرية والتي لا تغادرها الشمس إلا عند المساء. البنت "نورا" زهرة من زهور الحدائق، بوجهها المليح الذي يرغمك على التطلع إليه، وشعرها الغامر الذي تطرحه تحت الشمس فيضوي بلمعة النور النافذة، وخال الحسن على خدها يجعد كلما ضحكت بصوت يصل إليك فيسري فيك كالدم.

"سلمى" قليلة الحيلة أخذ الله منها وأعطى الأخرى من غير حساب، ضامرة كثمرة جففها الشمس على مهل. دائما في النافذة تنظران على الحديثة العامة، وتطارد عيونهما الفراشات.

تَذْكُرُ أنك التقيت بالجميلة ذات عصر عند الفندق الذي ينزل به اليهود. ولما ناديت عليها قالت لك: "أنت الذي يجلس في الشرفة أمام بيتنا" ثم نظرتْ لمروحة الهواء العالية وأشارتْ ناحيتها، فلمحت في يدها سلسلة تنتهي بعين الحياة الفرعونية. ولما قلت لها: "ما اسمك؟" ابتسمت وأجابتك "نورا" فاقتربت منها وقلت لها: "إن شعرك جميل يا "نورا"

فردت عليك: "كلهم يقولون لي إنه جميل". وعندما رأى الجماعة اليهود يغادرون الفندق في صف طويل كأنهم في جنازة، وقد بدت سحناتهم على قدر من الشراسة، وعدم المحبة، تمتص عيونهم قبة المسجد، ونصب الشهداء القريب من الفندق قالت لك: "من هؤلاء الأغراب؟" وأشارت ناحيتهم فأجبتها: "سياح من إسرائيل" صمتت، وعندما نظرت لوجهها الجميل وجدته انطوى على ألم مفاجئ فيما زمت شفتيها على حزن ثم أسلمت قدميها للريح واختفت من أمامك.

الآن تراهما تقفان في الشرفة ككل يوم "نورا" في المقدمة، و "سلمى" خلفها محنية الرأس، تدفعها الجميلة بقوة مشيحة بوجهها عنها. كانت الريح قد نشطت تُطير شعر البنت الذي يغمر وجهها كله. وأنت في جلستك تراها حزينة هذا النهار. كانت "سلمى" تدور حولها مداعبة، لكن البنت مستسلمة لحزن كالموت. وكنت أنت تتذكر أنها كانت تقف في الشرفة تضفي على الشارع محبة، وقدرا هائلا من السرور. تحاول أن تبتسم ناحيتها لكنها تشيح بوجهها عنك. خرجت "سلمى" من داخل البيت وبيدها مشط وأخذت تمشط شعر أختها الطويل. تتحسسه في حنان وتعقده وتفرده، إلا

أن الجميلة ذات الجدائل دفعتها دفعة غير رحيمة في صدرها فهوت البنت على الأرض ضربة شيش الشرفة بظهرها، ثم نهضت متساندة وانسحبت حتى الجانب الآخر من الشرفة، ووضعت رأسها على السور، ثم انخرطت في البكاء.

غير أليف

قارب على الماء

وأحس بالخطر من كل جانب يتهدده.

في المسافة بين مكمنه، والقلعة التي تعلو تلا على الماء، والتي لن يبلغها أبدا في الزمن الذي قدر له أن يعيشه تحمل المسافة أصواتهم، ورنات ضحكاتهم في الفراغ الصامت المحبط الذي يقطعه بين الحين صوت طلقات البنادق.

"كان عليك أن تأتي من الجنوب"

كان قادرا على رؤيتهم يقفون أمام الباب الصخري لو ارتفع على بنان قدميه، وخاف أن يتقدموا من أمامه ومن خلفه "هؤلاء الذين لا يكفون عن الضحك، والمسامرة" فيضيِّقون عليه الخناق.

"ما يعنيني هو الوصول إلى القارب"

حدس، وقد تكاثف خوفه بأنه يواجه وحده في هذه البَرِيَّة حياته كلها التي أصبحت في مجملها لحظة من فرار.

"القارب".

عاد يتطلع خلفه.

كانوا أيضا هناك، يرى بَزَّاتهم الكاكية فيما يلمع سلاحهم، ورائحة البحر تهب بدم عفن، والملاحات التي تشبه الورود

القانية تمتد على مدى الشوف، راكدة، وساكنة، ونباتات صحراوية خشنة، وشوكية، والرمال الصفراء المبرقشة بأكواخ الصيادين المهجورة، والنهار يهرول ناحية المغارب ملونا الأرض بلون الغياب.

انتبه عندما رأى الجنود ينصرفون من عند الكوبري. شعر بقدر من الأمان يتسرب على وعيه، ووجده يهمس "الآن الطريق آمنة" وفكر أنه يمكن اختراق ما خلف التل، والدوران حول الملاحات والوصول إلى القارب المعد للهرب. سمع صوت البروجي يأتيه من القلعة، ورآهم ينتظمون في صفوف، يسمح خبطات أحذيتهم بالأرض علامة التمام.

"الطريق سالكة، وعليك المروق".

انحنى ببدنه النحيل، وسار محاذرًا، ويده ممدودة إلى أسفل، وعينه تتحرك في كل الأنحاء. ارتمى بجسده على الأرض ساترا نفسه بشجرة التين الوحيدة، وظل كامنا برعبه في قبضة الرمل، وحراشف الصخور.

فكر في رفاقه الذي فرُّوا جميعا، وتساءل عن مصائرهم، ومن خلال الصور التي تتتابع أمامه حادة، وقاطعة خاف أن تكون قد حصدتهم الرصاصات، أو أكلتهم الملاحات.

"القارب هو الملاذ"

وزحف على الرمل، وكلما رأى البحر يقترب سعد بحسن طالعه. كانت تدفعه مخيلته النشطة، وحمى الذكريات الحية المتضاربة بعقله في حنق، وعدم ارتياح.

وعاد يتذكر عندما كان ينفذ من باب المبنى العتيق، في الضاحية العتيقة للمدينة، بعد أن يغادر قطار الضواحي، صاعدا الدرجات في نشوة الحلم. يطرق الباب فينفتح عن وجه أنثوي لفتاة تلبس الجينز، تلمع عيناها بضياء، وترتسم على شفتها بسمة مرحبة.

- أهلا.
- أهلا.
- كلهم حاضرون؟
- العدد كامل.

وكانوا يتحلقون حول طاولة، ببزاتهم المعهودة، وشعورهم المهوشة، وعضلات وجوهم المستفزة، وحلمهم في عدل قريب سوف يتحقق، كانوا فاتنين بدرجة لا تعرف البؤس، وكانوا يصدقون، وكانوا يقفون في صالة بيت الضاحية البعيد يستمعون للريح الوحشية التي لا تني تهب من بعيد، وسرعان ما ينحنون على الطاولة يراجعون ما يشغلهم.

كان كل شيء في تلك الأيام يتم على قدر حسن.

وكانت الرؤى واضحة، وكانوا كلهم يحلمون.

"الحلم !!! ... ما الذي بقي لك منه؟"

قالها، وهو يزحف على بطنه، فيما انتشرت أعداد من القطا فزعة، ومحومة تضرب بأجنحتها في الأنحاء على غير هدى، وقد التاث قائدها على نحو من اضطراب.

تساءل:

"أين هم الآن؟"

بدت الأرض أمامه على قدر من القسوة، وتكاثف في المدى الصمت، مشاركا فيه الهواء الذي صمت أيضا وخَرَسْ ضحكات الجنود.

مساء في الخريف، والقارب على الماء، حلمه، الذي سوف يعبر به مكان الموت إلى المكان الآخر الذي لم يفقد كل شيء.

بدت القلعة أشد تجريدا، وأحس بها كرسم في كتاب قديم، كان قد اقترب أكثر مما ينبغي من القارب، أكثر مما قدر لهارب، يحاول على قدر طاقته أن يدرك طالعه في مكان آخر، لكنهم كانوا هناك يكمنون في قلب القارب، صبورين، وعلى درجة خالصة من السكينة.

عندما رآهم وقف ساكنا، ولم يحاول الفرار، ولم يشعر بالخوف، فقط تسلل عبر عموده الفقري برد كليالي الشتاء. لم يعرف لماذا في هذه اللحظة تذكر البنت التي تفتح له باب البيت في الضاحية البعيدة، وسمع صوتها يأتي من أبعاد سحيقة "أهلا ... كلهم هنا".

تأمل الجنود وانتظر رصاصاتهن التي انطلقت في نفس واحد.

تهاوى على الأرض.

كانت السماء قد ازدادت شحوبا، وتكاثفت شمسها النارية في حزمة من ضوء، أخذت تنطفئ رويدا، رويدا أمام

عينيه، بينما يحس بانسحاب روحه من بدنه. كان في رقدته يود لو يبكي، لكنه كان يراقب الموج الذي ينحسر من فوق الشاطئ ويبتعد عنه، وأخذت أصوات تأتيه من بعيد.. من هناك.. عبر تلك الطرق التي لا تفضي إلى شيء.. من سطور الكتب الغامضة.. واختلاط الأزمان.. وضياع الحلم، تسعى للخروج من ذاكرته التي تنطفئ. كان وهو يحاول التشبث بآخر بصيص من الضوء يرى القارب على الماء يسحبه الموج إلى بعيد، وعلى ظهره البنت التي كانت تقف في باب منزل الضاحية، وهي تبتسم.

غير عادل "الرائحة"

وجعل يحدق في الشمس التي على الماء.

يشد مطاط "المايوه"، ساترا كرشه الصغير، ماسحا ثدييه الساقطين أعلا بطنه، وكتفيه المجعدين بجلد محتقن.

يتلصص بعينين ضيقتين، تبدوان عاشقتين للحياة، لكنهما في حقيقة الأمر كليلتان بدرجة تبعث على الحزن.

يهمس لنفسه "امش أيها الكهل. لا تقف هكذا خلف الشماسي" سار بين الصفوف تواجهه الجزيرة الصغيرة، يلطمها الموج من كل جانب. تأملها وهمس لنفسه: "الجزيرة".

صوته يخرج نحيلا من حنجرته إلى المدى المتوج بالماء، وصهيل الشمس، وهواء سبتمبر الذي يهب من هناك بالحنين.

عندما غمر الماء ساقيه شعر بالابتراد. تقدم خطوات حتى وصل الماء وسطه. غطس ببدنه كله للحظة، ثم خرج يشهق. يحس الآن بالماء يتسلل إلى مسامه دافعا بما بقي في جسده من حيوية إلى رأسه فيشعر بالانتشاء. يكشط وجه البحر بكفيه متأملا المستحمين بفرح الأطفال.

ثمة حياة أخرى يأتي بها البحر.

وتذكر أيام شبابه، عندما كان يسبح في نفس واحد حتى الجزيرة، يذهب ويعود أكثر من مرة. يأخذ صِنارته، وجرابه في يده، ويمضي النهار في الصيد، وتأمل النوارس.

سبح بوهن حتى تجاوز المستحمين. رأى من مكانه رابية الكورنيش، وسمع الصخب يأتيه مختلطا وزاعقًا، وبالونات ملونة في الشمس، وطائرات من ورق تعلو في الهواء جانحة، وثابتة في الريح.

سبح مسافة أخرى، وشعر بغياب القاع عن قدميه. واصل السباحة ثم وقف بطوله توازنه حركة قدميه ويديه.

بدأ الرجل يغني بصوت حسن، أغنية شجن من زمن قديم، ثم عاود السباحة.

فوجئ بأنه ابتعد عن الشاطئ غاب الصباح، وشعر بوحدته مع البحر، ولاحت له رءوس الشماسي تسبح على الماء. امتلأت خياشيمه برائحة البحر، ورائحة الملح، والنباتات. ضربه قلبه عندما رأى أنه ابتعد كثيرا.

"ما الذي تحاوله أيها الهرم؟"

وشعر بالرعب

أخذ شهيقًا، وتكاثف إحساسه بالزمن، وغذت روحه نوازع المجانين، وصعدت عبر شيخوخته المتأخرة، التي تحاول اللعب مع الماء.

"تذهب على الجزيرة؟"

أدَرَكَ بالفعل نيته، واستسلم لرغبته في الذهاب.

"الجزيرة بعيدة ونائية"

مضى يضرب الماء ساحبا جسده خلفه، يرى انفلات الموج ناحية شرق الجزيرة، ويقاوم اندفاع البحر بإرادة الوصول.

لما تعب كف عن السباحة. انقلب على ظهره قليلا ثم استوى يسبح. صَمَتَ البحر، وغرق في زرقة عميقة، وشع على الماء الغموض. كف عن السباحة فعبث به التيار وتولى قياده. هف الهواء، وبدا له الأمر غريبا، ومدهشا "أن تفعل ما كنت تفعله منذ خمسين عاما".

شعر كأنه يستيقظ على لحظة فرح.. اكتشاف.. هل كان يختبر عمره؟ أم كان يحاول من غير عزاء اختلاس لحظة من زمن قديم ولى؟!

"لقد ابتعدت كثيرًا، وأنت لا تضمن النتائج على أية حال" عاد وانقلب على ظهره، وطفا رأسه الأشيب على الماء. راقب الشمس وهي تنحرف ناحية "المغارب" تألمت عيناه فأغمضهما، وتكاثف بوعيه صوت البحر.

عاد فواصل السباحة باطراد ناحية الجزيرة. كان النهار يشحب أمام عينيه فيما يثقل عليه جسده، ودوار في رأسه يجعل مساحة الأفق تختلط عليه. خاف من النسيان، ومن ضياع ذاكرته فيضل في البحر.

زاد من ضربات يديه، لكنها كانت ضربات واهنة. وبدأ الندم يضرب قلبه الجانح. فزع من الماء الحي، وخاف من الموت وحده.

اشتد تعبه، والجزيرة ما تزال بعيدة، وانتقض قلبه في حجابه الحاجز، وبدأ يسمع صوت لُهاثه. أدرك أن الشيخوخة تيار يندفع في العروق، يأتي من أعمق الأعماق بالهزيمة والخسران.

حمله الماء للحظة. رأى الجزيرة تقترب، راية تخفق أمام عينيه، غير ثابتة. أخذ نفسه، وسيطر على لهاثه. همس: "لا

لن أموت الآن" أراح ساقيه، وخاف أن يتقلصا، واستسلم للتيار الذي يأخذه إلى هناك.

ما إن لامست قدمه اليُمنى صخر القاع حتى دبت الحياة فيه. تماسك وهو يخطو على الصخور مستعيدا انتظام أنفاسه. لمح الطحالب، والسمكات الصغيرة المنفلتة، والقواقع في مكانها من قديم. أخذته بهجة الأعماق، وتلك الحيوانات الصغيرة النشطة. شعر بانتصاره. نعم.. لقد عاش من السنوات الكثير، بما يكفي لهزيمته، لكنه يصعد الآن صخور الجزيرة مضمخا برائحة الماء والعشب، وانتصاره المتوَّج.

خطا محاذرًا النتوء النارية، وأفواه الصخور المسننة.

استوى جالسا على صخرة كان يعرفها في الزمان القديم. هب الهواء باردا، وطيبا، وسمع صوت الرياح المواتية، وعاد يحدق في الشمس الصغيرة الحمراء، ثم عاد لتأمل الجزيرة. كتلة من صخر أبديّ. فجوات من عمقها ينبثق الماء دافعا بالأسماك والطحالب والقواقع الصغيرة التي يصفر بها الريح. سماء فوقه موشاة بلون الأرجوان الذي لا هو بالدم، ولا زهر البنفسج.

طأطأ رأسه التي ازدحمت بالتواريخ، واستند بمرفقيه على ركبتيه وغرق في فكره. قال: "الحياة غامضة، وتدعو إلى الأسى". ثم همس: "إنها تذهب مرة ولا تعود".

ورآهم يخرجون من الكهوف العميقة. صبيان وبنات كأحفاده. ينتشرون على سطح الجزيرة، وكأنهم على موعد. كانوا عرايا كالخلق الأول. تستر عوراتهم مايوهات صغيرة، وشعورهم مسدلة، فيما تبدو أجسادهم في لون الشفق. سمع أصداء موسيقى تعلو في المكان، تدوم بلحن راقص. قال: "من أين يخرجون؟" كانوا يقتربون منه حتى شكلوا حوله حلقة. كانوا يتأملونه بصمت، ويحدقون هذا الكائن الخرافي بدهشة، ويتبادلون النظرات. انتابه القلق والتوجس عندما رأى ثباتهم المطلق، وعيونهم المندهشة التي تنظره بغير تصديق.. شعره الأشيب.. ووجهه المغضن.. وثدياه الساقطان.. وكرشه الناتئ كبالون.

".. قضيت أيامك يوما بيوم، مطاردا تلك التفاصيل الصغيرة التي لا طائل من ورائها، والتي تحاول من خلالها استعادة الأيام.. فما الذي يراه فيك الصبيان؟".

خاف أن يصرخوا في وجهه، واشتدت ضربات قلبه.

أحس كم هو طاعن في السن. كم هو رجل عجوز يبعث على الحزن، وأنه قادم من زمن آخر.

رآهم يبتعدون عنه، ما تزال رءوسهم تتجه ناحيته بغير تصديق. ينزلون إلى البحر واحدًا واحدًا، سابحين تجاه الشاطئ حتى اختفوا عن نظره.

عاد ينظر إلى الأرجوان، وبدا حزينا كبستان في الخريف، وشعر بوحدة مطلقة تكاثف رعبه. اشتدت لطمات البحر على جوانب الجزيرة. ثم جاء المساء غير عادل، فيما يجلس الرجل على الصخرة يراقب مجيء الليل، ويخاف الرجوع.

رائحة الليل

في الليل.

يستعصي المنام، ويدرك الشيخ القَلِق: أن ليلته طويلة ككل ليلة، وأن لا عزاء لروحه المتعبة.

يتوسل "فراج" أفندي الشيخ الطاعن في السن على النوم فلا يجيء، لحظتها يحلو له أن يستعيد أيامه ليدفع عن نفسه الوحدة ويتعزى بما كان.

يجلس على حافة السرير. كفاه على أذنيه، مطرق الرأس، وقد انحبست حياته بين هذه الجدران الأربعة سنوات طويلة، بعد أن فارقته زوجته بالممات، وتزوجت ابنتاه، يراقب الصراصير وهي تدخل من تحت ثقب الباب متجولة في طريقها إلى الحمام، يجلس، يضنيه السؤال: لماذا يشعر بأنه أيامه غير محتملة، وأنه في آخر العمر يبدو كمتاع قديم، زائد عن الحاجة؟

جدران باهتة، وستائر مهترئة فارقها اللون، وأثاث من زمان يقاوم الفناء، وسجادة على الأرض انمحت صورها الفارسية، وإطارات على الحائط يحتجز زجاجها صورا لذكريات قديمة، وصورة للزوجة على خوان "الأستيل" المجزع بالنحاس المطموس اللمعة.

- كل ليلة، الذي نبيت فيه نصبح فيه.

صمت قليلا ثم قال:

- لعلهم يخرجون الآن.

نهض خارجا للصالة، ثم وقف في الوسط. بدا كمن نسيه الزمن تحيطه سكونية باردة، ويفعم روحه إحساس بالمهانة. ما يؤذيه أنه بعد هذا العمر يجد نفسه يتسول لحظة من حنية فلا يجدها.

جلس على كرسي في الصالة بعد أن فتح باب الشرفة. تأمل الليل وأشعل سيجارة. الشيخ الضئيل يتنفس متنهدا، طاردا من صدره الدخان، متأملا مصباح السقف الملون الذي يفرش الأرض بأخيلة ملونة، وثقوب من النار تبرقش السجادة القديمة.

- حتما سيخرجون ككل ليلة. سوف تأتي أصواتهم.

انفتح باب الشرفة التي تقع في الجانب الآخر من الشارع، وسمعهم يخرجون. هتف لنفسه:

- شيء طيب. هم الآن يخرجون، ويتكلمون.

يجلس الجيران في الشرفة بين أصص الزرع، تحت "التندة القماش. يسمع ضربات أحجار "الدومينو" و "الطاولة" يتذكر حديثهم بالأمس. يود أن يواصلوا ما انقطع. يعرف أن ابنهم المسافر سوف يعود، وأن الولد الصغير يحلم كثيرًا ويتكلم في نومه، بل يعرف أيضا العلاقة التي تربط البنت الشابة بجارهم الشاب. يأتنِس بالصوت والبسمة والموسيقى المنبعثة عبر الشارع حاملة الأُلفة والونس:

- والله يا مصطفى الصيف في الساحل الشمالي أحسن.
- لا يا بابا لا تطاوع ماما. لا يوجد أحسن من إسكندرية.
- وأنا مالي أنا عاوز أسافر "قبرص" هذا العام.
- يا جماعة الصيف عليه بدري.

هاهم يثرثرون فيأتنس. يكسرون حدة الوقت، وإحساسه المروع بوحدته كأنهم أسرته. يُصبرون روحه بالتعازي القديمة، ويسري فيه تيار من الشجن، ويشعر بدمعة ساخنة تطفر من عينيه فيما يسمع صوته خارجًا من بين ضلوعه.

- فقط خاتمة من الونس.

سمع تثاؤبهم، فأدرك أن النوم قد حل، وأنهم على وشك الفراق. غادروا الشرفة وأغلقوا بابها فحل الصمت، واحتاج هو وقتا كافيا ليدرك من جديد أنه أصبح وحيدًا. مسح بعينيه الشارع، ورأى من خلال غفوة مفاجئة جمعًا من الناس، وقد ارتدى السواد، يخوض عبر الصمت شارعًا غارقًا في انعزاله. يحملون نعشا يسبح فوق الرءوس. يسيرون به في جنازة صامتة تحت مصابيح شحيحة النور ويعبرون المنحنى الذي يقود إلى المقابر القريبة. كانوا يخوضون في أرض موحلة وقد أشبعها المطر. انتبه بعد أن ضربت رطوبة الليل عظم الشيخ فنهض ودخل شقته وأغلق الباب. سمع رياح الخماسين تهب على نحو فجائي، وتدور بتراب الشارع الذي يقطعه الآن صخب سيارة عابرة.

شغل المذياع فأتى الغناء التركي من بعيد، يدفع إلى قلبه الماضي بغير هوادة، وانفتحت الذاكرة على طاقة من ضوء باهر كاشفة ومعزية. تذكر أنه كان يعشق تلك الأغنيات. وأنه كثيرًا ما سمعها على أسطوانات تدور فوق "فينوجراف" عتيق.

قال لنفسه: "على المرء أن يرضى بخواتيمه"، واقترب من الصورة المعلقة على الجدار "عليك أن تعتقد في ذلك" الصورة في إطارها البني الكالح هو وزوجته وطفلتاه يقفون على شاطئ البحيرة في "أسوان" ذلك الامتداد الهائل للماء، وتلك النوارس البيضاء تحط منقضة على الصفحة البيضاء في نبض حي الفندق القديم، وحديقة النباتات، والجنادل الجرانيتية الجاثمة في المجرى وقد رسمت عليها الكتابة الطيور، والشموس المشرقة، والعربات المتوجة بالسهام الملكية تضوي في شمس الشتاء. الصورة تأتي للذاكرة بما فات وانقطع. يتأمل النظرة في العيون، وتهب رائحة المكان، ويلحس بشفتيه طعم الريح.

يندهش "فراج أفندي" من ذلك الماضي الحي الذي له رائحة الحليب، والذي يتسلل من أركان الشقة فيحيل بدنه الهش إلى أسى على نحو يجعله يقاوم البكاء. كانت زوجته تأتي من الممر الذي يقود إلى المطبخ، تحمل صينية عليها أطباق من الحلوى، تتبعها ابنتاه. ورآهن يجلسن عند قدميه على البسط الجديدة وينظرون إلى النجوم. صاح:

- هكذا أنت. تدللينني كالأطفال.

- ومن غيرك يستحق أن يدلل؟!

خفق قلبه لا يكف عن محادثة المفارقين، وسمع تنهداتهم في الأركان. ابنتاه.

أين هما الآن؟

تقطنان بالضاحية البعيدة من المدينة وقد انقطعتا عن زيارته، وانشغلتا بحياتيهما، حتى في الأعياد والمواسم تكتفيان بالاتصال به بالهاتف، وأنه بين الحين والحين يقطع تذكرة المترو ويذهب لزيارتهما، لكنه بعد وقت قصير يرى الضجر في عيونهم فينهض واقفا:

- سوف أذهب.

- ما بدري يا أبي.

يتأملهما ويعرف أنها دعوة للفراق.

نظر إلى فراشه، وخاف أن يأتيه الموت فجأة فتوجه إلى دولابه وأخرج بذلته المخططة وخرج من الشقة في هذا الهزيع الأخير من الليل. يهبط السلم وبداخله يخيم آخر العمر. رأى عددا من القطط تعلو صفائح القمامة في عراك صاخب. سمع صفير القطار في البعيد، وعاين ريح

الخماسين وهي تشتبك مع النجم. كانت المدينة قد هدأت تماما وقد تغيرت شوارعها.

كان يمشي من غير هدف في وحدة خالصة.

عبر سياج المتحف القديم، وشريط الترام، ورأى قبة البرلمان، وقرأ على الحائط إعلانا عن معركة الفرسان.

وجد نفسه أمام قسم شرطة وسط المدينة العتيق، في ذلك الشارع المنسي، الذي عايش أزمنته المتواترة. غادر بوابته وسار في الممر الذي يتوسط حديقة خَرِبة، وصعد الدرجات الثلاث حتى إذا ما وصل الباب برز له العسكري المناوب في كسوته السوداء سائلا إياه:

- إلى أين يا والدي؟

رد عليه بصوت كأنه اختراق الشموع:

- داخل. عاوز أقدم بلاغ.

وردة الليل

كانت "القاهرة" قد غادرتني.

و"إسكندرية" تبدو أمامي كحلم.

ليل على البحر، ونجوم نابضة في قلب الماء، وسيارات على الكورنيش تقطعه في سرعة الريح.

حاولت بقدر ما أستطيع النفاذ لذلك المعنى الخفي الذي يشي به المدى المفتوح، وأنا أدرج وحدي على شاطئ المتوسط.

قلت: "تهرب؟" وأجبت": "إلى أين؟.. كل المصائر متشابهة، تنتهي بالزوال، وبعد هذا العمر تبدأ من الصفر ".

كان المحقق قد قال لي: "نطلق سراحك الآن.. إياك أن تظن أن عيوننا بعيدة عنك". وكنت قد أجبته في اللحظة نفسها وأنا أتأمل عينيه الكاسرتين "بأن الحال مثل بعضه، الخارج مثل الداخل، والحياة آخر الأمر مرعبة بدرجة لا تصدق" ابتسم بخبث نادر عندما تأكد له من زمان أن الوهج بين الضلوع قد خمد، استدعى "القط" الأسود القديم الذي لمحت عينيه الصفراوين لا تطرفان، تحدجني بدربة، وقد أشرع مخالبه، وماء.

قال:

- القط. تعرفه بالطبع؟

ثم أطلق سراحه فأخذ يعدو في الممر، فيما انطلقت أصوات طيور الليل الجارحة تنبح من فوق المآذن العتيقة.

أخطو على الكورنيش، أمامي الجزيرة الصخرية يلطمها الموج أعبر ذلك الماضي بقلب يحمل كثيرًا من الانكسار، تتملكني مشاعر متضاربة. أبحث عن يقين، وعن معنى [الإسكندرية مدينة السعادة المؤجلة، والإجابات الغامضة، وهواء البحر ينزف الحنين. وأنت تقاوم ما مضى لعلك تستعيد روحك].

مقهى "وردة الليل" تحت مصابيح النيون، وموائده المصفوفة على الرصيف، وصور لسفن إغريقية راحلة في بحر من سديم، وبنات يونانيات على الحائط بصدور عارية، ووجوه من تاريخ هيليني.

جلست، بجانبي طاولة تكمن بعيدا عن الضوء وطلبت قهوة.

كأنني غفوت، أخذني النعاس وراح. أم أنني كنت متيقظا أرى بعينين مفتوحتين. ما أدهشني أنني كنت أراهن يخرجن من الماء، حوريات في فساتين بيضاء كالملائكة. أسمع

ضحكاتهن وهن يسرن بشعور مسدلة، وأثداء عارية: همست "الحوريات" "ادفع ذكرياتك المؤلمة بتأمل المشهد" عبث خفيف، وأصوات مختلطة تنطق بما هو خارج. أدركت لحظة تأملهن بأن البحر يُخرج من مدينته الغارقة لآلئ الحسن، وانتظام الكائن.

كنت أحاول بما أحمل من مشاعر الفقد البحث عن وجهها بينهن. أتأملهن وجها وجها، لكنني لم أعثر عليها أبدا.

بكيت بصوت مسموع "على من تبحث؟ وبأي الوجوه البعيدة تفيض الذاكرة؟".

أحسست بمن يدفعني في كتفي:

- أستاذ. أستاذ أفق.

فتحت عيني، رأيتها. كانت منحنية أمامي، وجهها قرب وجهي ولها رائحة من ياسمين.

- أنت نائم. أنت تبكي.

مسحت وجهي، وأخذت أتأمل وجهها بغمازتيه، ورأيت عينيها السوداوين تشعان بالنور، وشعرها الأسود الفاحم ينام على كتفيها "كأنني أعرفها، كأنها صاحبة الوجه الذي يأتيني

في الحلم. هي التي كانت من قبل عشرين عاما، قبل أن يوغل العمر، ولم يعد للقلب سوى الذكريات".

- أفندم.

جلست بجانبي وطلبت كوبا من الماء، وقالت: "اشرب" ورأيت في إصبعها خاتما على شكل تميمة من الفضة، وفي معصمها سوار من الذهب. بسمة بين شفتين ملونتين، وأنف حاد مستقيم، وحنية من عينين تعرفان الخجل.

كان وجهها مريحا، وكلما هزت رأسها سمعت رنينا لأجراس القرط الذي تشبكه في أذنيها.

- أنا آسف.

- أبدًا، كلنا نبكي في المنام.

دار هواء البحر بالموائد، وشعرتُ ببرودة في جسد مي. قلتُ:

- هي الساعة كم الآن؟

قالت:

- الفجر قرّب يطلَع.

- أين نحن؟

نظرت في عيني وابتسمت. أجابت:

- نحن في مقهى "الوردة".

كان المكان مزدحما بالفتيات. ملابس ملونة وعطور رخيصة نفاذة، وهرج في الأنحاء. يقفن أمام بار من الرخام الأحمر، خلفه رجل من نسل أغراب، يرتدي سترة بيضاء، ويعلق في رقبته فراشة حمراء، بجلده شُقرة، وفي عينيه مكر الثعالب. رأيت بعض رواد المقهى يتأبطون أذرع الفتيات وينصرفون فيما يعلو صوت اليوناني:

- لا تتأخرن في الغد.

كان رجل يضع رأسه على البار، يرفعه لحظة ليحتسي كأسا من البراندي، يصيح بصوت تعتهه السكر: "لا يمكن أن يطول الأمر، لم تعد الأشياء تحتمل" ثم راح يبكي. كان من غير المجدي أن أعتصر قلبي، ولسوف تذهب تلك الفتيات إلى البحر، فيما أنا باق أستعيد أياما محفورة في القلب كالوشم.

تساءلتُ:

- من هؤلاء؟ أجابتني:

- الفتيات.

لم أفهم، ولما رأت استغرابي أكملتْ:

- نحن فتيات ملهى "الكيت كات" آخـ ـر الليـ ـل نـ ـأتي للمقهى ليصطحبنا الزبائن. محطة. نـ ـدفع العمولـ ـة للخواجة وننصرف.
- صمتتْ قليلا ثم قالت:
- هيا بنا.

نظرت في عينيها، كانتا تشعان بالجمال والمرح.

نسير على الكورنيش المسمى بطريق "الحريـ ـة" أغيـ ـب عنها لحظات من زمن وأغوص في الحجرات الضيقة والتي في حجم المقابر، والرفاق يمشون ووجوهم إلى الأرض، ثم يعودون آخر الليل محمولين، وكنت أسمع صراخهم يأتي من ممر القطط إلى زنزانتي فأقبض على قلبي من الرعب.

- مالك؟
- سلامتك.
- كأنما تنظر عيناك للداخل.
- أبدا. الأمر ليس كما تتصورين.

أخذتُ كفها وسرنا حتى شارع "طيبة" بأشجاره الليلية، وبيوته الباروكية العريقة، نخوض في السكون من غير صوت. كانت تعرج بجانبي قليلا.

"وكانوا قد نقلوني من مدينتي آخر الليل في السيارة "الفورد" وحين واجهني البرجُ القديم الذي يمتطى البناء العتيق، ورأيت العقد المملوكي الذي ولجت منه إلى الممر لأقف أمام مكتب الرجل الذي يجعل عينيه تأتيان بالرعب. والذي تسعى القطط بين يديه، ورجليه، وحين فاجأني مبتسمًا "أهلا" ولما لم أرد التحية قال لي: "لماذا لا ترد يا ابن القحبة"، ثم أمرهم أن يجردوني من ملابسي، وأخذ يتأمل بشغف بدني العاري، وفتش حقيبتي، وحين عثر على صندوق الشاي الصغير ضحك بوحشية وأخذ يصيح بصوت ردده الليل: "شاي! فاكر نفسه عند أمه" وأمرني –وقد جُنَّ– أن أسف الشاي، ثم رأيته يخرج قداحته من جيبه ويشعل في ذقني النار".

وصلنا شارع "تانيس" لاحظت عرجها برجلها اليمنى يزداد، سمعت البحر يطوي موجه ويفرده، وسمعتها تدندن

بلحن شائع عن حنين مؤجل. ووجدتني أتلو في الليل بصوت منغم:

وإذا أنا لم أعد أنا

وإذا بيتي لم يعد بيتي

دعوني على الأقل أصعد حتى

الأسوار العالية

أسوار القمر

حيث تتفجر المياه

كانت تقف بالقرب مني عندما صاحت:

- كلام حلو. جميل.
- شاعر أطلقوا على ظهره النار.

أشارت ناحية بيتها، ودخلنا من باب الفناء. أشعلت شمعة فبانت شجرة ياسمين بجانب الجدار، وصعدنا درجات ثلاث. قالت:

دخلت صالة البيت المتوسـ طة، والتـ ي تفضـ ي علـ ى حجرات مفتوحة على الصالة. صورة على الحائط لبسـ تان، وسفينة لها شراع، وصورة شائعة للطفل الباكي.

- تأكل؟!

- شبعان.

ابتسمتْ بجلال، ورأيتُ الغمازتين تسطعان تحت خلال الحسن، وشعت في المكان رائحة الياسمين. العرج في رجلها يقلقني، لكنني كنت منبهرا بسعادتها التي تضوي في البيت في ذلك الوقت الأخير من الليل.

"وكُنت قد تمالكت نفسي عندما صنعتُ من لباب الخبز تمثالا لطائر مغرد مفرود الجناحين، وضعته على الرف الخشب المدقوق في الجدار، أطلعه كلما شع النور، وفي الظلام أستأنس بوجوده عندما يجثم على البناء المحفور في الجبل" قالت لي عندما لاحظت شرودي.

- رحت. أنت لست معي؟

- أنا معك.

- تذهب وتجيء كالموج.

ابتسمتْ، وتأملتني بشوق فشعرتُ بمدى صفاء عينيها.

كانت تقف تحت المصباح تشع بالنور.

رأيتُ صورتها تنعكس في مرآة الصالة. قالت:

- الست جميلة؟
- جدا.

أخذتها في حضني، وقبلتها في شفتيها. انزاحت القلاع القديمة، وصوت النسور، ومواء القطط، ونظرة العين. قالت: "الليل بارد"، وتداخلت بجسدها الدقيق في صدري، وتأكدتُ بأنني آخر المطاف قد وجدتها.

اشتعل منا البدن، وسمعتها تقول: "لحظة"، رأيتها تخلع بلوزتها فتأملتُ صدرها الجميل، ونحرها الدقيق. سحبتْ الجيب الأبيض.

تأملتُ، فارتعتُ، وخفتُ أن أصرخ في الليل.

كنتُ ما أزال أقف تحت صورة الطفل الباكي، وكنت أراها تفك "أبازيم" ساقها الصناعية، وتنظر ناحيتي وقد غابت ابتسامتها.

حجلتْ حتى اقتربت مني، وصرخت في وجهي متألمة"

- رجلي مقطوعة "هيه".. شايف.

كانت قد خلعت رجلها الصناعية وبدت رجلها الأخرى المبتورة أشبه بجناح حمامة منتزعا ريشه. كانت الرجل

مقطوعة من تحت الركبة، تمتد في الف راغ كي د ط االبي السؤال.

قبل أن تنخرط في البكاء اندفعت ناحيتها بكل قهر نفسي، بفزعي الذي اجتاحني فجأة، وأخذتها في حضني، وحملتُه ا لتغيِّبَنا الحجرة التي يتسلل على جدارها فرع الياسمين.

كشك الموسيقى

"أيتها المدينة التليدة،

من ذلك الذي أطفأ

روحك؟"

(١)

بالمختصر غير المفيد.

عليك أن تصعد حتى قلعة الجبل القديمة، ف تملأ رئتي ك بالهواء، فلربما ساعدك هواء الجبل أن تجفف دموعك.

(٢)

وكنت تراهم – فيما أنت صغير إلى حد الدهشة – وعلى سيماهم محبة خالصة، يشكلون حلقة من نغم، يدخلون ف ي حلل بيضاء، على طراز ذل ك الزم ان، يض عون عل ى رءوسهم طرابيش أتى بها الوالي الذي س كن القلع ة، ث م غادرها آخر أيامه إلى البحر المالح الكبير، يقفون وح ولهم حلقة من الناس، تطل من ستراتهم وردات حمراء، ويعزفون الأناشيد الوطنية التي حملها الأجداد يوما في مخيلتهم، قب ل أن يسرقها قطاع الطرق، ش يوخ المناص ر، الهج امون، أصحاب المراتب الدنيا، هؤلاء الذين لا يستطيعون أن يقولوا للشيء: كن فيكون.

كنت تراهم في مآدب الموسيقى يعزفون بآلاتهم النحاسية التي يضوي لمعانها في شمس النهار، يتحلق حولهم المرأة الأرملة، والمرأة الحبلى، وأهل السبيل، وصاحب العمامة، والقادم من عند جسر التراب من المديريات البعيدة، والخارج من زنقة المملوك، وساكن الأثر، والعابر الشاطئين، وقارئ الدفاتر القديمة، وأطفال البستان المستحمين في عين الماء، العائدين للنشيد السماوي حيث تهب عليهم الريح التي تأتي من المشرق على مدينة لم تكن تعرف جلبة الموت، ولا تعرف طعم تصدع الروح. يقفون تحت كشك الخشب يعزفون الوِرْد، والشفاعة، ومحبة الوطن. كان كفك بكف أمك تسألها:

- من هؤلاء يا أمي؟

فتجيبك:

- الموسيقيون.

وتسألها:

- وما اسم هذا المكان؟

فترد عليك:

- كشك الموسيقى يا بُنَيّ.

(٣)

ولما كانت الدينا "بردِيَّة" من كتاب الموتى الذي احت وى على السر وعلى الفرح، أقرأ فيه عن العيدين ووفاء النيـ ل وشم النسيم وعيد جلوس الملك وعاشوراء وذكرى أفـ راح الأنجال ووقفة رمضان ومولد سيدي الحسين وستي زيـ ب الطاهرة وسيدي البدوي وسيدي إبراهيم الدسوقي وشـ هيدي مارجرجس ومولد تجلي العذراء ووقفة رمضان أقرأ فيهـ ا نقشا على الثوب الملون والطرحة المطرزة، وواجهة المعبد القديم والمتحف الحاوي والمسجد صاحب الصـ دى الـ رنين وسرايا الجند وشيوخ الأزهر وطوائف الحـ رف، والنـ اس الذين يسكنون الحارات الضيقة التي لا تفضي إلى شـ يء، وأبهة الترك وبقايا البوشناق والأرمـ ن والتتـ ر والقـ وزاق والشركس والأعاجم الأُخر الذين جاءوا، فتلوا الآية وحققوا الحديث، وكتبوا سير الممالك هؤلاء الـ ذين كانـ ت تلمـ ع سيوفهم حتى الزمان المتأخر الذين كان يسمعهم جدي يغنون أغاني: أمان أمان مع المحمـ ل النبـ وي، تسـ بقهم فرقـ ة الموسيقى حتى إذا ما وصـ لوا تخـ وم الصـ حارى عـ ادوا ليحتفلوا بالأعياد القديمة حيث عروس النيل التي سوف تأتي

في ثوب عرسها ذي الذيل الطويل من الدانتلا البيضاء وتاج الزهر حول رأسها، فيدقون بالصاجات وينفخون في المزامير والآلات النحاسية بالمعنى الخفي للعالم الذي يخفق بالضوء على النهر الذي عبده الأقدمون، واعتكفوا خلف شاطئيه قريبا من المعابد التليدة آلاف السنين، يمنحهم الحنين ويعطيهم كسرة الخبز وليل القرى والقنديل المشتعل وجدران الدار الأربعة ورفقة الحيوان والحكايات في الباحات.

هم الموسيقيون الذين أعطوني الألفة والبهجة القديمة وجعلوني أقترب منهم وأنا – بعدُ – صبي طالبا من قائدهم:

- والنبي يا عم عاوز أسمع موسيقى "الحب جميل" يستدير ويخبط بعصاه الصغيرة على حامل أمامه فيصمت الموسيقيون، ثم يرفع عصاه هاتفا بهم:
- استعدوا موسيقى "الحب جميل"

يعزفون أغنية "الحب جميل" وأطربُ أنا الصبي الذي يقف على حد الماء والنار، والذي يرى الظل وبرقشة الشمس ويشم رائحة الهواء من الخميلة، ثم يتقدم آخر ويطلب من رئيسهم قائلا:

– لو سمحت عايزين نسمع نشيد "اشهدي يا مصر أنني الفدا"

يومئ برأسه بترحاب، فأرى وجهه شعَّ بالجنة وببسمة الضوء كمصباح، وتشيع محبة ذات دفء تأتي إلينا –نحن المشاهدين– وأشعر أنا بالخوف أن ينقضي زماني فلا أرى ما ذلك الذي أمسك به الآن والذي يسكن المدينة المسكونة بالشجر والتي لها ذلك البدن الحقيقي الهادئ المطمئن، فإذا ما انتهى النهار ودعتهم بتلك الفصول المنقضية – وهم ذاهبون لثكناتهم – من طفولتي البعيدة.

(٤)

الآن أين ذهب الموسيقيون؟

خلت المدينة منهم.

تلك المدينة التي احتلها الغبار، والمخاوف الليلية، والتي أصبحت من غير مجد، والتي غادرها الأفضلون، الذين تركوا في جنباتها الشجر الذي لم يعد، وخلفوا حزم السحر القديم، والتمائم في أكفان الموتى، الكتان، والأناشيد التي كانت تطلق على البر من حناجر سائرة على الماء.

اختفى هؤلاء الذين إذا ابتلوا بالرحمات أجهشوا بالبكاء.

ذهبتُ أُعاينهم في ميدان "التحرير"، وميدان "رمسيس" وحديقة "الميريلاند" وسفح "المقطم"، وأسفل "برج القاهرة"، وشارع "٢٣ يوليو"، وطريق "جمال عبد الناصر"، و "مدينة السادات" ومحطة "حسني مبارك"، وطريق "صلاح سالم"، وساحة "الحسين"، وزقاق مقهى "الفيشاوي" وشارع "الثورة" وساحة "المنشية".

لم أعثر لهم على أثر لم أسمع إلا صفير الريح.

هؤلاء الذين كانوا فيما مضى يصنعون الموسيقى.

الذين كانوا يصنعون الأشواق للأماكن التي لم تعد،

الذين تركونا من غير أسف،

ومضوا

(٥)

ألم أقل لك منذ البدء، وقبل أن يشعل رأسك المشيب، وتهجر بيتك العتيق على النهر، عند المنخفض ذي النوافذ التي تطل على البستان، الذي على جدرانه الصور الزيتية، والذي كنت تعود إليه في الزمن المتأخر لتتنسى أحزان الرماد.

ألم أقل لك منذ البدء: إنه عليك لكي تنسى ما أنت فيه أن تصعد قلعة الجبل القديمة وتملأ رئتيك بالهواء، فلربما ساعدك ذلك على أن تجفف دموعك.

(٦)

شارع "محمد علي"

أعنى ما تبقى من شارع الأفراح.. "ريفولي" بباريس.. تصور!

تخوض على شريط ترام منهزم بطل استعماله، وكان زهوة للمدينة زمان.

ترى الزحمة عن يسار ويمين، تبحث عن مقهى "كوكب الشرق" لتجلس بسنينك الخمسين بغرض احتساء قهوتك، وتأمل البيوت ... ولعل وعسى.

هيه.. ما الذي تريده؟.. تكلم يا من يحيا في الماضي.. هذا ما تبقى من أيام الموسيقى والغناء.. محلات مسكونة بالغبار، وخشب على الجدران يحمل مرايا باهتة صفراء، لا تعكس سوى ظلام الأخيلة بإطارات رصينة من خشب كالحٍ، ورسومات على الحائط لعدد من الموسيقيين القدامى، وآلات

شرقية معلقة على الجدران، عزفت بغير ضني في مجالي الطرب، وأبهاء الحريم.

حتى الزمن فقد رائحته، وحتى البيوت كبسها الغيم، وتوحدت مثل عجائز من زمن قضى عليه.

فوجئت؟.. هل فوجئت..

أنهم هناك؟

من هؤلاء؟.. هيه؟.. من هؤلاء؟

كأنك تعرفهم؟

كأنني أعرفهم.. رأيتهم زمان..

كهول خمسة، مضروبون بشيخوخة وهِرَم، كأنهم أحد أعمدة المدينة القديمة نفسها.

تأمل الوجوه، والملامح، وأدرك أنك رأيتَ ذلك في صباك الذي عشقته حتى الجنون. وشد بابك الذي كنت تطاردهم به من ميدان لميدان، ومن مناسبة لأخرى.

يا صبي الأعياد، والموالد، وأفراح الأنجال.

الموسيقيون.. هم الموسيقيون. صحتُ.

- ما تبقى منهم؟

المايسترو وأربعة من عازفيه.

هم.. هم.. الذين كنت تراهم يعزفون في الساحات، وفي الأعياد، والمناسبات القومية.

يلتقون ببعضهم، يشربون القرفة، وتلتقي رءوسهم في حديث هامس، وينصرفون.

كان لأحدهم سيارة "فورد" موديل قديم أخذتهم بجلاليبهم البيضاء التي فوقها "جاكتات" نظيفة.

ناديتُ على التاكسي فوقف، ركبته وأشرت للسائق أن يتبع هذه "الفورد" القديمة التي أخذت تخوض في الزحمة حتى وصلت شارع "صلاح سالم" متوجهة إلى مصر الجديدة. وصلت ميدان "روكسي" ومنه إلى "قصر القبة" حيث عبروا شريط المترو وساروا بمحاذاة شارع "عين شمس" ومن هناك اتجهوا إلى "عزبة النخل" بعد أن تركوا وراءهم شارع "سليم الأول".

آخر "عزبة النخل" بيت قديم دخلوه عبر بوابة من حديد مشغول.

أوقفت سائق التاكسي وحاسبته فانصرف.

تمهلتُ قليلا أمام السور، ثم اقتربت ونظرت عبره، فرأيت خلفه حديقة مزدهرة، وارفة الشجر، مبلط جوانبها وبوسطها نافورة من رخام يتوسطها تمثال لعذراء تغتسل، وكشك من خشب تكسوه نباتات متسلقة مزهرة بأزهار صفراء.

صمت:

- كأنه كشك الموسيقى القديم.

رأيت المايسترو العجوز – كان هو صاحب البيت بالتأكيد – يحضر الآلات النحاسية للأربعة، ويقف تجاههم رافعا عصاه ثم يبدءون العزف. عزفوا "عندما يأتي المساء" و "يا جارة الوادي" و "إمتى الزمان يرجع يا جميل؟!" و "يا تبر سايل بين شطين يا حلو يا أسمر".

رأيتني وأنا أشاهدهم عبر السور، وكأنهم يعزفون لأرواحهم، أرتدُّ طفلا صغيرا، كفي بكف أمي التي ماتت من سنين، أسحب يدي منها وأتقدم منهم متعثرا في خجلي،

راجيا أن يعزفوا لي –أنا الشيخ الذي خط رأسه المشـ يبُ–
نشيد "اشهدي يا مصر أنني الفدا"، ورأيتهم لفـ ـرط دهشـ ـتي
يستجيبون، وينظرون ناحيتي جميعهم، ناحيـ ـة الطفـ ـل ذي
المشيب ويبتسمون.

يسعد صباحك يا وطن

يجلس على الرصيف، في الحارة الزحمة تحـ ت جـ دار المسجد القديم، رأسه بين يديه، مكوما على بعضـ ـه، يقـ ـاوم زغللة عينيه ويتأمل السائرين بعداوة.

صرخ:

- دماغي هتنفجر.

ولد ضامر، من غير أحلام، عيل مـ ـن عيـ ـال السـ ـكك، بملامح شاحبة شحوب الميتين، شعره أكرت منكوش كشعر العفاريت، ووسخ يلطخ بدنه بالسخام بعد أن امتص المخدر حيويته، وتركه (خيال مآته) في النهار غير السعيد.

بومة تتلصص من خلال كوَّة في جدار الجامع، وخراب يطل من سطوح البيوت القديمة الآيلة للسقوط. قدم رمادي، مختلط بالبِلى، وبلاد مهيضة الجناح، سافرت فـ ـي الـ ـزمن الكثير.

- دماغي.

ضغط رأسه بكفيه، وصـ ـرخ بـ ـأنين. لا أحـ ـد يجـ ـيء، ولا أحد يمد له يدا. في انهياره لا يقاوم الريح، ولا يستطيع النفاذ من جحر الفئران.

نهض واقفا في غير اتزان وأخذ يعدو في الحارة، يفسح لنفسه مكانا وسط بشر الصباح التائهين، يخترق النهار ببدنه النحيل مثل عود القصب، وقد انفكَّت أزرار قميصه فيما يضرب الدوارُ رأسه بالنار.

اقتحم بيتهم القديم وسط الرَّبْع. أرض من تراب وسخ، نشع ماء الجوف مختلطا بالطين وبقايا رثاثة الأيام. زوايا مظلمة تخفي الستر، ومكابدة الحياة كل يوم. حملٌ من خضار وفاكهة، وطاقة من النور تدفع حصيرة الشمس على أرض السبخ.

فوجئت به أمه يقف أمامها كالمسعور فتحفزت غرائزها للدفاع، وأطبقت على جيبها. صرخ فيها:

- عاوز فلوس.

تراجعت الأم بظهرها حتى الجدار وقالت في توسل:

- أجيب لك منين؟ إنت شايف الحال.

اندفع بجسارة البائس ناحيتها، وأمسك بيدها يلويها، وظل يدور بها وقد انحنت المرأة تقاوم كسر ذراعها صارخة.. آي.. دراعي هتكسره".

دس يده في الجيب الغويط وقبض على النقود ثـ م فـ ر خارجًا من الدار.

نشق المسحوق الرمادي واستسلم لحظة للخـ در. غـ اب مفارقا الضنى والوضاعة، وقد تخلص من جنونه. عـ ادت شطآن الأمان تزهر، وعادت للحارة عراقتها. مئذنة الجامع بنقوشها، والبيوت بمشربياتها، والأسبلة بألوانها الزاهيـ ة.. أحس باندفاع الهواء إلى رئتيه، وعاد يطير في الفراغ الذي يحبه.

محلات تزعق بأغنيات فجة لصبيان الأفراح والملاهـ ي. مظلات خضراء وصفراء، وواجهات زجاجية مليئة ببضائع رثة وأشـ ياء مختلطـ ة مـ ن أوراق مفضضـ ة ومذهبـ ة، ومصنوعات من جلد صناعي، و(مصاغ فالصو) من صفيح ونحاس. أصوات في زمن من غير معنى، ورجال ونسـ وة في فراغ الوقت يروحون، ويجيئون في تقاطعـ ات الأزقـ ة ينظرون لعربات الكبدة والسجق والأحشاء الدسمة المقطعـ ة بسواطير حامية، وضربات مفاجئة، تحـ ط عليهـ ا حصـ ر الذباب، وروائح طبيخ زاعق، وصبي كبابجي يهُـ ف علـ ى بضاعته فيثير نفرة الدخان.

يوم للحشر، ويوم للندامة، قيامة، من صباحة ربنا، وحتى تهمد الأجساد في مراقد غير مريحة.

والفتى يسير وقد استقام عوده، واستوت الدنيا أمامه حالة من سرور.

رآها قادمة، سيدة في منتصف عمرها، بيضاء مثل اللبن الحليب، وله عينان زرقاوان، وحاجبان مثل الهلال، وبسمة تضوي في الشمس بالنور، وفي ذراعيها حملٌ من ذهب أصفر.

خطف الذهب عيونه، وضربت قلبه شخللة الأساور، كمُن بجوار باب الخرابة المسوَّرة الكائنة في ركن الحارة الخلفي، حتى إذا ما مرت المرأة من جانبه، كانت يده على فمها، وكان يسحبها حتى عمق الخرابة المليئة بكيمان الخشب، والهديم، والصناديق الفارغة.

فرفرت المرأة في يده، وحاولت النجاة، لكن اليد القابضة لم ترحمها وواصلت الضغط حتى أسلمت المرأة الروحَ. مددها على الأرض، يراقب الجسد الذي ما يزال دافئا، خاف وهو خارج الوعي أن تفلت اللحظة منه. اشتدت غلمته

عليه، وضربته هستيريا الحرمان فأغرق جسده فـ ـي اللحـ ـم الميت.

صمت مؤلم، وشمس صباحية قحبة، وأصوات لخلق تأتيه من آخر الدنيا.

الفتى ابن الحرام، وقد انتزع أساور الذهب، يسـ ـير فـ ـي الحارة من غير إحساس يؤلمه.

كان يقبض على عشرة أساور يرفعها فـ ـوق الـ ـرءوس، يصلصل بها فينفجر صدى الذهب، صدى الرنين كـ ـأجراس الإنذار، كالأنين في قلب ذلك النهار الرجيم.

صورة ملوَّنة للجدار

هي في البيت.

تطل على الميدان المشجر، وتتأمل نافورة المياه الملونة، وفي أقصى المشهد قطرات من النور ليوم منقضٍ.

هو يجلس على كنبة من طراز عتيق، بيده الكتاب المفتوح، يطل على صفحاته من خلال نظارته السميكة واستغراقه الصامت الطويل.

قالت:

- بعد أسبوع عيد زواجنا.

رفع رأسه ونظر ناحيتها متسائلا:

- هيه؟

- عيد زواجنا.

- صحيح.

- العيد الكام؟. فاكر؟

خلع النظارة ووضعها على الترابيزة الصغيرة أمامه، ثم هرش رأسه متفكرًا وأجاب:

- أفتكر ...

- تفتكر؟

أجاب:

- التسعتاشر

ضحكت، فجلجلت ضحكتها بالشرفة كأنها مياه النافورة.

قالت:

- لأ. العشرين. دايما كده تنسى.

دخلت من الشرفة وهي ما تزال تبتسم بتهذيب، وتناولتْ نظارته وألبستها إياه، ثم طبطبت على رأسه وقالت:

- علشان تشوف كويس.

أحس بالوخزة

(كأن الأمر قد اختلط عليَّ، وعجزت عن احتساب السنين، ثمة أماكن في القلب تبرد فيها حرارتها، وتتولد مكانها حقائق مختلفة ... لكن تلك قصة أخرى)

خرجت من غرفة النوم وهي تبرد أظافرها بمبرد صغير.

قال متعجبا:

- عشرين سنة. عجيب إدراكنا لفوات العمر، ننتبه له فجأة. كأننا واقفون على شط نهر نراقب التيار وهو ماشٍ.

قالت له:

- ألاّ صحيح، هو العمر فات؟

- يعني.

شغلت "الريكوردر" فهبط "باخ" من سمائه البهيجة، وامتلأت صالة البيت بنغم الملائكة. كان بمقدوره أن يراها قبل المغيب واقفة بوجهها الحسن، ومحياها الدفيء، وشعرها المسترسل الضارب في السواد، يأتيه صوتها بنبراته الطائرة ترفرف في فراغ البيت وكأنه الصدى.

قال لها:

- إنك تبدين دائما جميلة.

كانت تقف تحت صورة في الصالة تتأمَّلها كأنما تراها للمرة الأولى.

قالت له:

- المفروض أنه في المكان ده تتعلق فيه صورة زفافنا.

وخزة أخرى.

(وبدأت القصة الأخرى تستدعيها بحذافيرها ككل مرة، وكأنني لم أتغير).

وعاد بذاكرته.

(وكنت في البدء ذلك الفتى الفقير بحالة مؤسية. نحيل وجاف العود. أمتلك وجها يشي بعدم الرضا، يخفي بؤسه داخل البنطلون المكوي، والقميص حديث الموضة. أسكن بالقرب من مزرعة للخنازير، عند التخوم الغربية للمدينة، حيث تطلع "عين الشمس" قبل كل الشموس، ولا تغرب إلا بعد أن تغرب كل شموس المدينة. أحب المغامرة، وأطارد أول أوهام الصبا الجميلة. أركب قطار الضواحي في آخر ليالي الشتاء مفارقا أصدقائي الذين خلفتهم على المقهى.

الآن، وبعد فوات السنين أسكن الحي الراقي. عندي "الستروين" الخضراء. أعاني من مرض الحساسية المزمن، وأمتلك شرائط "لموتسارت"، والأعمال الكاملة "لنجيب

محفوظ، وبوليصة تأمين ضد الموت والعجز، وعددا لا يفنى من دواوين الشعر، والرواية الأخيـ ـرة "لجارثيـ ـا مـ ـاركيز" وحفنة من الأعداء الحاقدين).

قال:

- (كنا فقرا يا حبيبتي. لا نملك ثمن صورة زفاف).

ردت عليه:

- الوقت؟
- الوقت فرغ العمر، والسفر لحس أبداننا.
- لكني مصرة أنني أتصور صورة الزفاف.
- بعد عشرين سنة جواز؟
- بعد ألف سنة.

نقر الترابيزة بإبهامه ثم أسند رأسه إلى الحـ ـائط، وراح يتأمل حجرة مكتبه.

ذلك اللون البني القاتم لون حبات البندق، وذلك المكتـ ـب العتيق.

ذلك الصقر المحنط المفرود الجناحين، والمحبـ ـوس فـ ـي أحد رفوف المكتبة، وتلك الصورة لهذه المنـ ـازل القديمـ ـة

بعصرها "الباروكي"، وتمثال السيدة الشابة، الفاتنة، والتي اشتراها من بائع جوال يقف على قارعة الطريق.

سألها:

- والحال؟

ردت:

- الحل أنني أتصور الصورة.

تقلصت عضلتا خديه، وافتر فمه عن بسمة باهتة:

- يا حبيبتي صورة الزفاف اللي أنت بتتكلمي عنها دي انتهى زمانها. دول عشرين سنة.

- ده قرار. حياتي معاك كوم، والصورة دي كوم.

كان يعرف إصرارها إذا ما أرادت. وكان يعرف أنه ليس على ما يرام، يهرب من مواجهتها بالإصغاء للموسيقى الإلهية، ويدرك بغير ضنى أن مواجهتها معركة خاسرة، وأن هذه المرة ليست مثل المرات الأخيرة، وأنه بات متأكدا أن هوسا ما يسكنها، خاصة بسبب تلك الصورة، وأنها بالفعل قادرة على تنفيذ تهديدها.

قال:

- لكن يا حبيبتي راجل زيي تجاوز عمره الأربع ين، يتصور صورة زفاف إزاي؟

ردت عليه مقاطعة:

- زي الناس.

"وكانا فيما مضى من سنوات إذا ما دخلا سويا إلى بيوت المعارف والأصدقاء، تتسلل وحدها من غير أن يشعر به ا أهل الدار، وتقف تحت صورة زفاف معارفها وتظل تتأم ل لحظة الزمن المثبتة خلف الزج اج ف ي الل ون، وطع م الابتسامة، وتندفع صائحة بصوتها الرن ان ف ي الجالس ين "صورة زفاف جميلة" ثم تصمت لحظ ة وتع ود للص ياح "رائعة" ثم أقوم فأسحبها من يدها وآتى بها وه ي مس تثارة وأجلسها بجانبي حيث لا تغض طرفها عن الصور عل ى الجدار".

اندفعت داخلة إلى حجرة النوم، وخرجت تحمل على يدها ثوب زفاف أبيض وطرحة بيضاء، و"بوكيه" م ن زه ور ملونة، وضعتها على المكتب ثم عادت إلى الحجرة وخرجت ببذلة سوداء جديدة، وكرافتة حمراء، وقميص أبيض.

قال:

- إيه ده؟

- فستان زفاف، وبدلة عريس.

أدرك أنه بإزاء امرأة لا يمكن التفاهم معها، وتأكد أن الأمر قد خرج من نطاقه، وأن إتيانه بأي فعل من جانبه غير ما تريده سوف يدفعها إلى تنفيذ تهديدها. حملت الفستان ودخلت مرة أخرى إلى حجرة النوم.

بعد وقت قصير خرجت وهي ترتدي فستان الزفاف.

فستان من الدانتلا الموشاة بخيوط الحرير. رسومات لفروع نباتية مزهرة تنتهي ناحية شمس مخرزة بأشعة تمتد على جسدها الحي. طرحة خفيفة من نسيج غالي الثمن تغطي رأسها الجميل الدقيق، وصحبة الأزهار الملونة تحتضنها بحنو يثير الغرابة والدهشة.

(وأنا أقف مذهولا تستبد بي الحيرة، أتساءل: ما الذي أصنعه بشأن ما يحدث أمامي؟ هل على أن أكون واقعيا وأحقق لها حلمها الغريب هذا؟ أم أجثو على ركبتي طالبا الفهم وحسن التقدير؟ من الذي استطاع أن يعيد ما مضى من أيامه؟.)

- يا حبيبتي فكري في اللي إنت بتعمليه.

- فكرت ألف مرة.

أمسكها من معصمها وسحقها وصرخ في وجهها..

- ده جنون.

انتزعت يدها منه وقد أحمرت شد ـرايين عينيهـ ـا، وردت عليه الصرخة:

- المجنون هو اللي عايز يحرمني من أمنية صغيرة.

تنهد بضيق، وخاف أن تبكي فانسحب منهزما ودخل في بذلته الجديدة، وعندما خرج من الحجرة رأته وكأنما تـ ـراه أول مرة استبد بها الفرح المفـ ـاجئ، واتسـ ـعت ابتسـ ـامتها وأخذت تنفض له كسوته بكفها في حنية، وتدور حوله قائلة:

فاكر. مكانش عندك ليلة فرحنا بدلة تليق. خطفنا تاكسي من بيت بابا حتى الشقة في "عين شمس" عند الخنازير. أنـ ـا لسه فاكره ناظرة عينيك. كنت يائسًا وصعبان علـ ـيَّ. وأنـ ـا كانت حزينة ولابسة فستان أي كلام. وكنت كل لما أشـ ـوف محل مصوراتي يندبح قلبي. الليلة دي فاكراها كأنها حصلت امبارح. تصور.

خرجا من باب الشقة وهو معلق بيدها. يهبطان درجـ ـات السلم، هي غير وجلة وهو يسقط في فـ ـراغ شـ ـاهق كأنـ ـه

الجب. مستثار، لم يستطع حسم الأمر لصالحه. يدفع بنظارته إلى وجهه، ولا يستطيع مفارقة ضربات قلبه، أو يعيد لتنفسه انتظامه، ود أن ينتهي من الأمر بسرعة ويعود إلى مكمنه، وأسره، حيث كتبه، وصوره القديمة على الحائط.

فوجئت بهما الجارة يرتديان ملابس العرس، فشهقت برعب حقيقي، إلا أن الزوجة لم تعطها الفرصة وابتسمت في وجهها بوثوق جعلها تطلق بغير إرادتها زغرودة جلجلت في الأنحاء.

عندما كانا في الشارع أطلت كثير من الرءوس من الشرفات والنوافذ ترى ذلك الحدث الخارق ولا تفهم ما يحدث. كانت هي تشير بيدها ناحية الشرفات والناس وتتلقى التهاني بمحبة ودهشة.

شغل السيارة، وتحركت "الستروين" قاطعة شارع "الطيران" متجهة إلى ميدان "روكسي" حيث مصوره الخاص. دخلا المحل فقابلتهما إضاءة خفيفة تكشف عن الصور في الإطارات، وستارة حمراء على الحائط تنتهي بشراشيب تسقط على أرض الأستوديو.

قال المصور للزوجة:

- اتفضلي.. المرايا من هنا.

انحنى المصور ناحيته وقال هامسا:

- مبروك يا بيه. زوجة تانية؟

رمى المصور بنظرة، وضغط أضراسه وأجابه:

- لا يا سيدي. دي المدام.

ملأت الدهشة وجه المصور، وقال في نفسه: "الناس انهبلت" ثم عاد وقال في نفسه: "لكن وأنا مالي"، ثم دخل إلى حجرة التصوير يضبط كشافات الإضاءة.

على الجدار صورة لجندول، وزهرية ورد صناعي، وعلى الحائط عقال، وجاكتة، وبدلة لضابط.

قال الزوج:

- صور يا سيدي.

استقام بجانب زوجته، وضبط الوقفة بالتمام، وأخذ ينتبه لزاوية التصوير ويحاول بجهد خارق أن يرسم على وجهه علامات الرضا والابتهاج. في لحظة من زمن تأملها بجانب

عينيه. كانت عيناها تستحمان في ضوء كشاف التصوير المشع، يلفهما وهج مثير كلمعة الصباح.

قال في نفسه: "ما أغرب تلك الحيوية التي تتصف بها بعض الأرواح".

قال المصور:

- بصوا هنا. بلاش حركة. ابتسم يا أستاذ حبة. جميل كده يا مدام.

وضغط زر آلة التصوير.

مر أسبوع عاد لتيار زمنه. الكتب على الرفوف. أثاث حبات البندق، كل قطعة في مكانها. "باخ" يهبط من سمائه. إحساسه بأنه أصبح مسنًّا يروعه. يراقب الأقفال على الحائط، وكذلك الصقر المحنطة ودفتر مذكراته، وأعمال "نجيب محفوظ" الكاملة.

دخلت من الباب، كانت تحمل الصورة ملفوفة بورق مزخرف، ومربوطة بخيط. ذهبت عند الجدار وانتزعت الصورة القديمة. فكت الخيوط والورق، وعلقت صورة الزفاف الملونة على الجدار. كانت صورة كبيرة بدرجة لا تصدق.

ورأيتها تقف تحت الصورة كمهرة بريَّة، تعدو في اللون ناحية البراح، وتستعيد أمنياتها. رأيت في عينيها شد رارات النار، تبدو في الصورة وقد عادت صبية متوجة بالطرحـ ـة وصولجان الورد، وكأنها العروس الخالدة في يوم عرسـ ـها الأول. تقف في الصورة، بامتلاء كأنه العشق، فيمـ ـا يقـ ـف بجانبها رجل لا أعرفه، يبرز كرشه من حزامه وقد امـ ـتلأ رأسه بالشيب، وخبا منه نور العين).

بيت للعابرين

رن "التليفون" آخر الليل، فرفع ت الس ماعة، وس معت صوتا نسويا:

- آلو ...
- نعم
- منزل الأستاذ "صبري" ؟.... صبري سالم..؟
- نعم
- أنت متأكد؟
- طبعا.. أنا "صبري" بنفسه.

تهلل الصوت:

- "صبري" ابن العم "سالم" المولود في "كفر الغنـ ايم" مركز "سمنود"؟
- بالضبط معلوماتك صحيحة. لكن إنت مين يا أفندم؟
- أنا "سـ مية" يـ ا "صـ بري".. سـ مية فـ يض الله".. المنصورة.. فاكر.. سنة ١٩٥٧.. فاكر ... زمان.
- هتفتُ مأخوذا:
- "سمية "!

- برق الشعاع ضاربا أقصى تجاويف الدماغ فضوت الذاكرة. وتبدد ظلام النسيان، فيما تجمعت صورتها جزءا جزءًا.. الصبية الصغيرة التي كانت على عتبة الشباب، بضفيرتها الوحيدة، وقلادة الذهب، والبسمة المنورة، والغمازتين.

صحت بلا وعي:

- "سمية".. والله زمان.. والله زمان يا "سمية" كيف أحوالك؟

- قالت بعدم تصديق:

- بخير.. نفسي أشوفك.. أصل أنا شفت صورتك في "الجورنال".. أخذني الشك، لم أصدق نفسي.. أصلك تغيرت خالص.. اتصلت بالمسئولين فأعطوني رقم تليفونك.. نفسي أشوفك.. يا ريت تحضر.

وأعطتني العنوان، ثم وضعت السماعة.

خرجت إلى شرفة البيت. كنت أتطلع إلى الليل، وأنا أقف وحيدا أقاوم ما أنا فيه "سبعة وثلاثون عاما منقضية تنهض فجأة، وكأنها كانت محبوسة في كهف".

شعرت كأنني غير قادر على مواجهة الحنين، وبأنني لا أستطيع أن أقاوم ذلك الماضي الذي لا يخص أحدا غيري.

"المنصورة".. سنة ١٩٥٧.. أول الشباب.. زمن هـ ؤلاء الذين يأتون من القرى محتشدين بقلة تجـ اربهم، وخجله م، يتخبطون في شوارع المدن تائهين، حتى إذا وجدوا الملجـ أ كان لهم العزاء.

وبيت "سمية" كان عزائي، مأواي، عندما سكنت حجـ رة على سطح بيتهم.

الآن.. ماذا في الآن؟

هي هرِمة تقترب من الستين. كانت أكبر مني بسـ نوات ثلاث. ربما هي الآن جدة، أو أرملة ودعت زوجها وواراته التراب، وتعيش وحدتها بلا آمال، منتظـ رة مثلـ ي حسـ ن الختام.

تذهب؟

إلى أين تروح؟

لتتفرج على مشيبك، أم لتتعرف آخر المطاف على مـ ا صنعه بك زمنك الخاص؟

خيل إليَّ في هذه اللحظة أنني أعدو من غير حسبان، متجاوزا سنيني، عائدا لتلك المنطقة السرية من ذلك الزمن البعيد، لأطل على لحظة من ألق، حيث كانت تأخذ بيدي – أنا القروي – ونحن سائران على كورنيش المدينة نتطلع إلى الضوء، والقوارب المركونة، والصور المعلقة، والناس على "الكازينو"، وكنت أنظر في عينيها فأعثر على الفرح، وأتأمل الغمازتين، وأطمئن نفسي بسؤالها: "إن كانت تحبني؟" فتزوغ مني ضاحكة: "حاذر يا فلاح النبي لا أحد يأخذ كل شيء".

في الصباح بدري ملأت صندوق السيارة فاكهة، وحلوى، وقطعا من قماش، ومزهرية من زمن الخريف، وتوكلتُ.

دخلت "المنصورة" في الضحى. المدينة التي لم أرها من سنين "المنصورة".. لؤلؤة من ذكريات تسكن في القلب.. حكايات من الزمن القديم تنهض من النسيان حزمة من شرايين حية.

رأيت قاعدة الرخام، والكازينو العتيق، والنادي "اليوناني"، بينما يجلس "مراكبي" عجوز على مؤخرة قاربه يتأمل الماء.

قلت:

"ربما هو من كان شابا ينقلنا على النهر سائحَين في ذلك الزمن الذي كان" طرز البناء، وسد ينما "ع دن" والأزقة الصغيرة التي تحبس روائح البيوت انتفضت حية بملامحها وكأنني تركتها بالأمس.

كان البيت يقع بعد ضاحية "توريل" بالقرب من شاطئ النهر، تحوطه أشجار الكافور التي تفرش فروعها العصافير.

ركنت السيارة، وحملت هداياي، وضغطت على جرس البوابة الخارجية للبيت، ففتحت لي فتاة لها ملامح قروية سمراء، ونظرات تلمع في النور.

خطوت إلى حديقة مزهرة على غير أوان، ورأيت نافورة مسوَّرة بحجر من رخام، تفوح من الحديقة روائح معطرة بذكريات تضرب خاصرتي من غير رحمة.

ليس هو البيت القديم، الذي كنت أسير بصالته، وأطل من نوافذه، وأسمع غناء الجارة الست "هدى" منطلقا بأغنيات الحنين.

انتابني قدر من خوف، وأحسست برعشة الذاهب ليلتقـ ـي بحياة كان قد عاشها من زمان.

صعدت درجات السلم الرخامية وانتظرت.

بعد قليل رأيتها تخرج، ترتدي فستانا من الحرير الأحمر، موشى ذيله بقطيفة حمراء، ومطرزا بوردات زهرية. كانت أمامي بشكلها القديم، وصباها الذي أعرفه.

شهقت، وصحت:

-"سمية" كأنني فتُّك البارح.

توجست قليلا، ووشتْ ملامحها بالاضطراب، فيما كنـ ـت أهوي أنا مصعوقا كلما تأكدت أن الزمن لم يمر بها.. نفـ ـس الملامح، والقامة، وخفة الروح.

مددت يدي فقبضت عليها:

أهلا يا "صبري"

خيِّل إليَّ أنني أسقط من مكان عالٍ، وخفت أن أصـ ـرخ من ضربة المفاجأة. نظرت إليها بقلبي، وتأملتها بحواسـ ـي الخمس في سطوع النور، يشع منها ضياء الشباب، وعبيـ ـر

له رائحة الياسمين. قلت في نفسي: "شابة بنت الحلال، كأنها لم تتجاوز الثلاثين، تقف أمامي وكأنني غادرتها بالأمس".

خفت من اختلاط الأمر عليَّ، وحاولت بقدر ما أستطيع السيطرة على مشاعري.

دخلت أمامي مرحبة، تفرش الأرض بالتحايا، والضحكات فيما تستولي على البيت رائحة البخور الهندي، وشذا الياسمين.

- والله زمان يا "سميَّة".

ضحكت، وأنا أتأملها متشككا وكأنني في حضرة أخرى.

قلت لنفسي: "ممكن؟.. كيف تستطيع أجساد أن تقاوم الفناء؟!".

جلستُ أتأمل بشرتها التي تضيء في النور الذي يسطع من النافذة:

فاجأتني:

- والله وكبرت يا "صبري".. شاب شعرك وعجزت.

- الغريب أنكِ عكس ذلك تماما.

ابتسمت، واستأذنت لحظة، ولكي أنتزع نفسي مما أذ ا فيه، تأملت صالة البيت الواسعة. كانت كبيرة وعلى قدر رفيع من الذوق والغنى. ستائر القطيفة على النوافذ. صالون مذهب يستقر بطرازه الفرنسي. تحف، وصور على الحائط لمستنسخات من القرن الماضي، لحوريات، وملائكة مجنحين، وسجادة فارسية على الأرض موسومة بزخارف نباتية. صورة شخصية لها من ذلك الزمان صبية في إطار من خشب بني اللون، وذي رصانة، وضعت في مكان ظاهر عمدًا، وسبق إصرار.

أعرفها تلك الصورة غير الملونة، وأتذكر دقائق زمانها حينما استعرتها لأيام لأضعها في ألبوم صوري؛ حتى طلبتها مني مبتسمة "مالك.. الأصل معك".

عادت ببهائها، وجهها المنور تطلق ابتسامات طيبة، ويجلجل صوتها بكلمات الترحيب.

قلت:

- فاكره هذه الصورة؟
- وهل هذه أشياء تنسى. كنت تحبها كثيرًا.

أطلت من الباب الموارب يد تحمل صينية عليها فاكهة، وطقم شاي من البورسلين، ولمحت ظلا لسيدة تكتسي بالسواد، وسمعتها وهي ترحب بي:

- أهلا وسهلا.
- أهلا بك.

سألت "سمية":

- من هذه؟
- قريبة.

واكتفت.

بعد ذلك كنت أسمع خطوات السيدة تطرق سمعي دائرة في البيت بإيقاع رتيب، وصوت تنهداتها يأتيني مضمخا برائحة البخور والياسمين.

صمت راحلا إلى بعيد.

حينما كنت فيما مضى ألبدُ على "البحر الصغير" تحت البونسيانا" ذات الأزهار الحمراء، متظاهرا بقراءة كتاب بالقرب من المدرسة "اليونانية" التي تتوسط الطريق لمدرستها ومعهدي، وأراها قادمة بمريلتها الزرقاء، وضفيرة

شعرها المشبوكة بشريط أحمر، تضم حقيبة كتبها لصدرها، تعرف أنني أكمن عند الشجرة أنتظر رؤيتها في الخارج، إلا أنها آخر النهار كانت تعنفني "بطل تلصص" وتكون قد فردت شعرها فانطلق في كثافة الليل، وأكون أنا قد أحببتها أكثر، وطويت جوانحي على الحلم، وتكون قد اقتربت مني قائلة "يا الله يا فلاح دعنا نذاكر".

قلت:

- شيء غريب.

روت:

- ما هو الغريب؟

لم أرد؛ لأنني شاهدت السيدة المسنة من الباب المفتوح على الحديقة تشذب بمقص في يدها أشجار الزهور. كانت ترتدي فستانا أسود بكمين طويلين، تطل من تحت طرحتها ذوائب من شعر في لون الفضة، وعندما رأيت جانب وجهها كانت تلبس نظارة سميكة، تستقر على وجه محتقن يشيع فيه الأسى والحزن.

سمعتها تطلق غناء كالعديد تدفع به نسمات الخريف محملا شجنا.

قلت:

- غريبة.
- خيرًا
- كأنني أعرف هذه السيدة.
- ارتعش صوتها عندما قالت:
- أبدا.. هذه قريبة من بعيد.
- ثم قالت مغيرة الموضوع:
- فاكر "بريسكا"؟
- "حكاية من زمان" قلت:
- تقصدين "كوثر حجازي".
- البنت التي كانت تمثل معكم مسرحية "أهل الكهف" كنت عامل دور "مرنوش" الرجل الذي عاد من نومه بعد ٣٠٠ سنة، يبحث عن امرأته وابنه.
- فاكر طبعا.. حتى أنت أيامها فكرت أنني أحبها.

ضحكت قائلة:

- كانت أيام حلوة يا "صبري".. كانت أيام.

خيل إليَّ أنني أسمع صوت بكاء يأتي من تحت النافذة، وأن هناك من يتصنت علينا. وانشغلت بالسيدة العجوز الغريبة.

سألتها: إن كانت سمعت صوت بكاء؟ فردت عليَّ:

- أبدا.

تناولنا الغداء، ولم تكف عن الحديث، كلمتني عن نفسها، وبأنها تزوجت بعد أن سافرتُ أنا ولم أعد، وكلمتها عن نفسي حتى خف بنا الزمن فعدنا لسطوح الدار القديمة، وشوارع المدينة.

راحت الشمس.

وعزمت على الرحيل.

نهضتُ، ونهضتْ معي. قالت:

- ما بدري. هل ستعود؟

- ضروري.

هبطت معي الدرج. وقفنا تحت شجرة في الحديقة.

لمحت نفس السيدة المسنة تجلس تحت النافذة التي كنا نجلس بجوارها.

تأملتها هذه المرة. كانت كهلة، شبه عمياء، مضروبة بالشيب والسمنة المفرطة.

انتابني إحساس غريب بأنني أعرفها، ربما قابلتها من قبل. سألت "سميَّة".

- أنت متأكدة أنني لم أرها من قبل؟

قالت وقد هربت من مواجهتي.

- طبعا هذه قريبة لنا تأتي أحيانا.

- غريبة.

سمعت العجوز تصحيح بي، رافعة يدها:

- مع السلامة.

- الله يسلمك.

ورأيتها تدخل إلى البيت، ولا أعرف لماذا شعرت أنها تجهش بالبكاء؟

خرجت للشارع خائفًا من هبوط الظلام الوشيك. وأحسست بأنني تأخرت تعثرت في حيرتي، واختلط عليَّ الأمر، وكل تلك الأسئلة تمور بداخلي.

عندما استدرت رأيت السيدة العجوز تلصق وجهها بحديد النافذة وتطل عليَّ. كانت تق بض عل ى الحدي د بأص ابع مشدودة.

أسرعت من خطاي في اتجاه السيارة أخاف من النظ ر خلفي.

في حضرة السيدة

وكانوا قد بدءوا في الوصول ...

هؤلاء الذين أعرفهم، الذين يتشبثون بالحلم، ويـ ودون أن يرفعوا عن ضمائرهم الحزن، الباحثين في الزحمـ ـة عـ ن عزاء..

- مدد يا سلطان ... مدد على طول المدد.

وبدوا على نحو غريب وكأنهم يطفون على الضوء.

قال خليل:

- مولد وصاحبه حاضر.

على كوم التراب فرشت حصيرة قديمـ ـة مـ ـن سـ مار، وخلعوا نعالهم في أدب، منتظرين توهج اللفحات.

كوانين في حضن الجدار فاغرة حلوقها، تطل منها سيقان شجر الشطوط التي تنتهي بوهج النار، تنضج لحم العشارى في قدور هائلة من نحاس. كوانين فوقهـ ـا أوانـ ـي القهـ ـوة والقرفة والشاي والزنجبيل، ونسـ ـوة جالسـ ـات، حاسـ ـرات الأثواب عن أفخاذ ساخنة باللهب، وصهد الـ ـريح، بيـ ـدهن مغارف كالمقارع، "وبؤونه" الحجر شهر قائم، وحره يكسـ ـر المسمار.

ساحة غواية السلطان. شيخ العرب. صاحب النداء العالي إلى بر مصر المحروسة ليتجمع الخلق من كل شق من شقوق الوطن.

تأملت وجوه الناس العتيقة، وتجلى أمامي المشهد في وثنيته وحضوره كأنه يوم الحشر، ونحن نجلس على تل التراب متوارين في الظلمة بعيدا عن طغيان النور، يتشكل على رءوسنا دخان الشيشة سحابة من طيوف، وجوهرة لوقت لا نريده أن ينقضي.

قال "خليل":

- هو وحده، جوهر الأشياء، لا إله إلا هو.

ابتسمت ناظرا لـ "يحيى" فرأيت وجهه الهادئ، ونظارته تستقر على أرنبة أنفه، يتكسر بالحزن وخيل إليَّ كأنه يحادث نفسه.

- طوبى للغرباء، وأهل السكك.

قالها "خليل" وشد من الشيشة النفس.

أنظر، أرمي عيني لوهج النار. أشاهد الأرواح المضروبة بالشفاعة، والأجساد المرمية بجوار جدران

المدينة القديمة، وسيل البشر الذي يدور في مجدها الغابر، وحواريها الضيقة.

- مدد يا شيخ العرب، مدد يا "أبو فراج"

سرادقات الخدمة منقوشة بالأهلة، ومثمنات الزخارف، ومثلثات اللون، وآيات من القرآن. رائحة "دقة" وقراقيش الحليب، وأنجر الثريد هائل تنحط فوقه هبر اللحم الذي يتصاعد بخاره، وأصابع كالمخالب تمتد ناهشة منابات اللحم في وقت الوفرة، وبركة السلطان.

وشام ينقش حمام العين، ويشم العرائس الخضراء، وجنيات البحر، وفوارس الكتب القديمة الممتطية صهوات الجياد، حاملة السيوف وناظرة بغير خوف لأيام خلت.

مدد على طول المدد.

شق الفضاء صوت المجذوب الذي سرعان ما تجلى في هلاهيله، طويل البدن كصوت، نحيل كعود غاب السكك. يرتدي ألف لون ولون، يخيط بثوبة مرايا بحجم كف اليد تضوي بوهج النور الذي يضوي على جسد المجذوب. ذقن كالهشيم، وعينان تطفران بسر أسرار الخلوات والانقطاع، والبحث المضني عن طريق. "خرج" من قماش لامع

بالوسخ، له لون الرماد، عليه دهن العطايا، وقدمان تـ دبان على الأرض بالهيبة والحفاء.

وقف يتلفت حواليه ثم وسع من خطوة واتجه ناحيتنا نحن الجالسين في أدب في الركن المظلم تحت ستار من دخان.

وحد إلهك يا غفلان، في المـ ـاء لا تـ ـرى سـ ـوى وجـ ـه الخالق.

ودب يده في الجحيم، وقبض على جمرات الفحم. تعرق جبيني، وفارقتني غبطتي أنا المستجد، الجالس على أعتـ ـاب الصهبة، وأحسست للحظة كأنني في مدينة من مدن الخيال. رفع قبضته بالنار كأنها روحه، كأن النار في كفه جرش من الجليد، ورأيت النار تخفق على الرءوس حيـ ـة بمـ ـا يكفـ ـي لدفعي أن أحرر نفسي من قبضة المشهد مستعينا بتأمل مدن الخيال التي عرفتها من صباي الأول.

طحن بأصابعه الجمر وذرّا به في الهواء فهبط متفحمـ ـا على هامات الخلق، ثم فرد حجره الذي سرعان مـ ـا امـ ـتلأ بالثريد وهبر اللحم والقراقيش. صرخ بعلو الصوت: "مبارك أهل الخدمة. خدم السلطان. أهل الطلوع للمدينة التي تزدحم بالكفرة نفض حجره مما فيه، ملقيا به للتـ ـراب، ثـ ـم انـ ـدفع

جاريا في الزقاق الضيق وهو يزأر بصوت جهير "وحدوووه ... وحدوووه".

نظر "خليل" ناحيتي. كان يهرش ذقنه الأشيب كنتف قطن التنجيد، وسمعته يتمتم لنفسه: "إن الحياة صعبة بدرجة مؤسية"، ولما قلت له: "جدا" قال لي: "إن أشنع ما فيها أن نحياها"، وتأملت وجهه. كان أكثر سمرة من كل أوقاته، وقد تحول لونه إلى لون الكبدة، كانت عيناه ترفان وتحبس لمعة كابية حزينة، تحمل ثقة من يموتون وحدهم. هم واقفا وقد اختل توازنه بتأثير ما شدَّ من أنفاس "الحشيش" وسار ناحية الجدار وسمعته يفرغ مثانته، فيما كان يعلو صوت بكائه المباغت.

انتظمت حلقة الذاكرين. بدأت أولا على إيقاع الكفوف، ثم سرعان ما ضربت الموسيقى، وصوت المنشد لحم الليل فتمايل الذاكرون "الله حي.. الله حي" إيقاع الكفوف عزف على جدار القلب "الله حي" رتم إيقاعها يخرج من الدم إلى السماء المفتوحة على الشفاعة.

استوى المنشد واقفا على دكة عالية بيده مسبحة من كهرمان، وعصا من نحاس لها عقفة سوداء من عظم حوت،

ينسدل على بدنه النحيل قفطان من الشاهي المخطط بخطوط زرقاء، يكبس على رأسه عمامة، وينحسر عن ذراعه كم قفطانه ممسكا بميكروفون زاعق الصوت، يجلس خلفه عازف على عود، ونافخ ناي، وضارب رق.

خرجت النغمات أول الأمر غير منتظمة، مضطربة غير جياشة، سرعان ما استقامت في لحن متوحد له إيقاع ثابت متكرر. ضربت الموسيقى لحم الليل فاهتز كجلد الرق، وخرج للمدى المفتوح صوت المنشد.

كم تدعي بطريق القوم معرفة

وأنت منقطع والقوم قد وصلوا

خرجت "الله" من الجمع المحتشد تفتح بابا للسماء البعيدة، وتقبض على الأرواح التي تسكب ذلها في ليل الولي. الجماعة الحاسرة الرءوس، المضروبة بحرّ "بؤونه"، ونفرة التراب تعلو على الهامات.

قلبي يحدثني بأنك متلفي

روحي فداك عرفت أم لم تعرفِ

انجذب الخلق، وغابوا عن الوعي. زبد من ريق أبيض كبقاليل الجمال الرامحة. حمرة في العيون، ووسع للجفون،

وأجساد عرقانة تفصد هم الليالي، وقسوة الوقت، وانهيار الأحلام. رجل ركبه عفريته مستلبا روحه فوقع على الأرض ينتفض برعشة كهرباء الجن فتلقفته امرأة لحيمة إلى صدرها فاستكن في كثافة اللحم، وحنية الطبطبة على الظهر. بنت من بكارى الريف محلوقة الشعر، معصبة رأسها بمنديل بترتر راحت تماما في جذبة الإنشاد، تاركة ثدييها حرين في عبها الواسع. امرأة تمارس عهرها مع فتى صغير في شبق فطري، تسحبه إلى غيطان اللذة على وقع الإنشاد، وإيقاع الذكر، وضرب أقدام الذاكرين، وحضور الجماعة بالبدن وغيابها بالروح في الملكوت. نساء الخدمة أمام قدور النحاس ما زِلن يحملن المغارف، ويكشفن عن أفخاذهن للصهد.

لما تيقنت أني ليس أبصركم

أغمضت عينيّ عنكم لم أر أحدا

أدركت للحظة كأنني خارج الوقت، وأن ما يحدث أمامي بعيد عن زمان الحقيقة، كأن السماء قد اختفت من أمام

عيني، تحزم متاعها وترحل إلى بعيد. قلت: "أيـ ن نحـ ن؟"
"كأننا في حضرة الزمان القديم ذاته".

لم أكن غائبا عن الوعي تماما. كنت متأكدا أن كل هذا لا يمكن حدوثه في مدن أخرى مهما حاول الإنسان أن يقطـ ع النهارات ذاهبا إلى تلك المدن الأخرى التي تحمل كل هـ ذه المصابيح المضاءة، والتي من الممكن أن تعيدَ إليَّ صد وابي لأدرك آخر الأمر، وبكل ما أمتلك من خرافتي أن ما يحدث لا يمكن أن يحدث إلا هنا. فكرت فيمن جاء من الصد حراء ملثما، جرابه وسيفه، وعباءته التي تمتلئ ببدنـ ه النحيـ ل. كأنهم عندما استقبلوه عند التخوم كانوا يعرفون.

فجأة، ومن غير ما توقع، رأيت البـ ـاب المركبـ ـة عليـ ـه مقرعة من نحاس لها رأس الأسـ د ينفـ تح، تبـ دو صد ـالته كالرواق، يسطع فيها ضوء أشد من أنوار الشارع.

تخرج من البيت سيدة في منتصف العمر، علـ ى خـ دها خال للحسن، وبيمينها البشارة، وفي عينيها جنـ ـة المـ ـأوى، تحوط رأسها بشال أبيض من حرير خفيف. ما أن اقتربـ ـت من حلقة الذكر حتى توقفت تماما. صد عدت تـ ل التـ ـراب وحملقت في الجمع الذي هوى.

أطلقت السيدة زغرودة من حنجرة مطواعـة. صـمتت الموسيقى، وسكت الدف، وذكر الذاكرين.

أطلقت أخرى فكان لها الامتداد، وتوقف تمامـا تطـوُّح المتطوِّحين.

أطلقت ثالثة على شرف الولي، وأهـل البيـت، وأمـة الإسلام، وانتشى الليل بصلصلة النواقيس في الفراغ الممتـد في المعابد القديمة.

انتزعت شال رأسها فهوت جدائل شعرها خصبة كطمي النيل.

أطلقت أخيرة فجاءت من الكهف القديم الذي حوائطه من حراشف السمك، وأصداف البحر.

مدت يدها – لم يضق بها الحال– بنشوة لا تقاوم، وشقت ثوبها حتى ذيله فتجلى جسدها عاريا كله في سطوع الضوء؛ الثديان، والبطن، والردفان، وشعر العانة، والمرايا المخايلة.

كبر الخلق واضعين –من وهج الجسـد– أكفهـم علـى عيونهم لا ينظرون.

الحلم بادرة حسنة للنوايا، فاصلة وخاتمة تنتهي بغير افتخار

بجلال النظر أتأمل أو هو أيضا يتأمل ذلك الذي يسكنني ويعيش زمن انكسار روحه السور الذي يسور البحـ ـر الآن وفيما مضى عندما كنت أنتظر فوق أحجاره الملونة بـ ـدبات الحياة الأولى، وأراه يحتبس في كهوفه دراقه وسمكه ورنين صبواته، وأحجاره الكريمة التي تتألق وتضوي على جسدها بالنور ولا تنطفئ.

لقد رأيتهم يدخلون عليَّ وعليها فينصفق الباب وتـ ـدخل الريح المحملة برائحة الماء والملح وعشب البحر الشـ ـائهة العجوز القديمة محتفلـ ـة بأسـ ـرارها ومخاوفهـ ـا، مكافحـ ـة الجدران التي تعلوها صور يوحنا القديس وجـ ـزار القـ ـلاع المنسية، والفتى الفارسي والجميلة المبتسمة في انتظار جـ ـز الرقاب تأتي هي الريح من عند السور، فتسور الـ ـدار ذات الأروقة والأبواب المشرعة على حدقة الذاكرة العروس التي تكتسي بالبياض كأنها النبع في الحجر تطل من عليائها على شرف زمانها، حيث شتلت علـ ـى الأرض شـ ـتلة الريحـ ـان والرمان، وسوَّت هي بجانب السور لحظـ ـات مـ ـن زمـ ـان انقضى يدخلون من فتحة الباب ملثمين يرتدون السواد هـ ـم الأربعة الذين يمتلك كل منهم أزمنة: زمان للحلـ ـم وزمـ ـان

للنفي وزمان للجراح وزمان للموت على رءوسهم يعتمُّ ون عمائم الخوارج التي منها أهلة من فضة بيضـ ـاء كالشـ ـمس وتخفق أجراس صغيرة معلقة في رقـ ـابهم بـ ـرنين ضـ ـوء المصابيح التي تنير أركان المعبد الضنى والفجيعـ ـة مزيـ ـة خصورهم بأحزمة تستقر بها خناجر يمانية على مقابضـ ـها فصوص الزفير والعقيق ومرجان البحر، أحزمة من قطيفـ ـة حمراء بلون الدم، حفيف الخطو لم يحدث صوتا على البساط وأنا أراهم يتسللون خارجين من رأسي، وكأنني أطلبها لتفتح الباب على أروقة الدار لتتضوع رائحـ ـة البخـ ـور الهنـ ـدي الجاوي ومسك الصين القديمة تفوح من الدار علـ ـى العـ ـالم بالخارج يتزاحمون عليَّ لأمتلئ بالهم مرة وبالحزن أخرى، كأنهم جاءوا على مهد الليل مـ ـن الأرض البعيـ ـدة يـ ـأتون بزمجرة الأصول الدببة والقرود، والكهف الصوان ينـ ـتفض فيك الطفل الذي كنته تحت تهديد الخناجر اليمانية المشرعة فيعرف معنى الخوف الذي ورثه من ظلام الحارة، وكبسـ ـة القاعة وحلم المطاردة وسكك شـ ـيوخ المناصـ ـر وهـ ـروب الشمس في المنام واكتشاف خديعة الوحدة في مكان أعلـ ـى البحر بعيدا يأتون ويقتحمون العين الحافظة، وصـ ـوت الأم

الضائع في مملكة طحن الغلال في البلد الأخرى البعيدة عن القبيلة وخيام الوبر وقدس أقداس المعبد القديم وثقل لهجـات الكلام وبحور طيبة الطيبة الفواح، وكعبة النبي وكتدرائيـة العمة دميانة المستقرة من زمان في صحن الغيطـان، ودار العزاء في المدينة أراها تقف في ممر دار الأروقـة يسـقط على البدن ضوء قنديل السقف الملون، فيرسم على الجدران بقعا من النور الملون يهز الهلالين في أذنيها وتمسح بيـدها شعرها الفاحم، أنظر إلى البحر فأشعر أن ثمة عاصفة رغم صفاء الجو وانحسار ضباب السحاب عن وجه قمر السـحر القديم مفسحا المدى رويـدا رويـدا للجـرادة والحلـزون واليعسوب الذي يطِنُّ في الظلام تحت جذع الشـجر أتأمـل صعودي القديم للجبل باحثا عن تفاهم ولغة للتواصل ودفئـا أفتقده في زحمة الخلائق ومحاولة لإدراك معنى ما يحـدث كالغبن والكراهية وغير العزاء وزحمة الأناشيد للغار الذين يسيرون على أنوفهم بلا تعب يلبسون الأقنعـة ويتجهـون ناحيتي بعيون كأنها الذعر فيفلت زمان الحلم وزمان الطين وزمان الجراح وزمان الموت المؤجل هـم يـدخلون الآن وأراهم يقتحمونها؛ خصوصيتها ونهرها ونخيلها، تبدو الآن

عارية كنبع الماء في الحجر، تستغيث بي رافعة كفها تـ دفع بهما الأذى، وأنا بلا حول أغوص في الماء الثقيل وكـ أنني أغرق في النوم، وكأنها كانت ضـ ربة المقـ بض اليمـ اني أغوص في السؤال: أين الفضيلة والكبرياء؟! أتأمل بطنهـ ا المدورة عليها التعويذة وفي كتفها الحجـ اب الحـ افظ تقـ ف مشدودة كالشمعدان وعلى بطنها –قرب سرتها– خال الحسن الأسود في حجم الزيتونة السوداء، هم الآن يقتحمونها بـ لا رحمة، هي عارية وبلا حول، وأنا أغرق في انعدام وعيـ ي تائها في البياض وقشعريرة هواء البحر وضحكات الشياطين المقتحمة.

يأتيك النهار عوضا عن تعب الليل، تنهض متأملا البحر من النافذة وتراقب هواء أول النهار الندي، وتسمع من على البعد صوت سفينة راحلة. يأتي الحلم فتمعن النظر وتقـ ف وقد تجلى في الحلم. تهمس لنفسك: "عجيبة، اللهـ م اجعلـ ه خيرا" تسأل: ما الذي جعلك تنام في الصالة بهذه الكيفيـ ة؟. تراها زوجتك تقف بالقرب من مطبخ البيت صامتة، تتأمـ ل لوحة الفاكهة المعلقة على الجدار والكئوس المنتظمـ ة فـ ي

دولاب الفضيات والصد الون القديم والجدران المغطاة بالورق.

تتحرك في الشعاع الذي يفرش الممر وتسمع أصوات البحر مطرقة. تحتفظ بعينيها ولا تنظر تجاهك. تنهض مقاوما صداع رأسك في محاولة يائسة لدفع الطنين تجلس على الطاولة ذات الكراسي الستة المكسوة بالقطيفة البنية، والتي على مساندها طواويس ملونة، تشد قدميك وتقاوم دوار الحلم الذي لا تستطيع أن تفارقه، تراها واقفة هناك فتستدعيها تأتي حاملة هدوءها بين عينيها، وتجلس معك، تمد كفك تحاول لمس يدها لكنها تبعدها في حركة مفاجئة وتنظر في عينيك قائلة: "لسوف تتأخر"، وترخي عينيها وتغادرك، لتقف تحت القنديل الذي كان مضاء بالأمس ولا يزال.

تخرج بمعطفك الأسود الذي يمتلئ بالريح فيفاجئك البحر يضرب السور الذي يسور. تنحرف ناحية الميدان الذي يفضي لمحطة المترو لتشتري دخانك. هناك تحت المظلة التي تستقر عند الجميزة القديمة يقف رجال أربعة تقترب رءوسهم من بعضها ويتكلمون. عندما رأوك رأي العين

ابتسموا بخبث. لم تكن تعرفهم، فنظرت إليهم وتجـ ـاوزتهم، لكنك عندما أعطيتهم ظهرك كـ ـان قـ ـد اشـ ـتد ضـ ـحكهم، وثرثراتهم، وكانت تأتيك أصواتهم، تتكلم عن السرة، والخال أسود عليها، في حجم زيتونة سوداء.